اقرأ

دكتور محمد زغلول سلام

القومية العربية
في الأدب الحديث

دار المعارف بمصر

القومية العربية

في الأدب الحديث

دكتور محمد زغلول سلام

القومية العربية
فى الأدب الحديث

اقرأ ٢٠٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٠٣ — نوفمبر سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة

تقديم

. . . كان الأدب العربى فى جميع أطوار الأمة العربية باعثاً قويا من بواعث النهضة والتطور ، ولا غرو فقد بدأ تاريخ الأمة العربية بالقرآن الذى شحذ همم العرب وبصرهم بالقيم الإنسانية وبالحياة ، ونظم صلاتهم فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين بارئهم ، وفتح أمامهم آفاق العيش الكريم ، وأكسبهم القوة ودعاهم إلى الوحدة والعزة ، وحملهم رسالة السماء إلى الناس من حولهم ، فاندفعوا فى جحافلهم تحت راية القرآن تسلم لهم البلاد المكدودة من ظلم الطغاة قيادها ليرسوا بها حكم العدل ، وليشيعوا لغة العرب وحضارة الإسلام والسلام . . .

. . . ثم ظل القرآن يرفد الأدب العربى فى معركة العروبة من أجل البقاء ، وظل الأدب والأدباء روحا تشب القبس كلما أمعنت يد الزمن فى إخماد الجذوة القومية فى نفوس العرب ، أو كلما تكالبت صروف الدهر فلعبت بمصائرهم وحاولت أن تفرق بينهم وتشتت شملهم . . .

فلا زال الأدب العربى داعية وحدة وتآلف . . . لأنه يخاطب القلوب والعواطف ويخاطب العقول والبصائر ، ونعقد عليه الأمل فى تدعيم القومية العربية وإرساء قواعدها بين أبناء الأمة العربية .

عناصر القومية ومقوماتها

أولا – العروبة :

والعروبة مجموعة من الخصائص والخصال انطبع بها الجنس العربى ، بعضها خَلقى ، وبعضها الآخر خُلقى نفسى ، ونحن أحرص على بيان الخصائص الخلقية والنفسية لأنها أقوى أثراً فى تطور الأمة العربية وفى تفاعل العرب مع الأمم والشعوب الأخرى التى اتصلوا بها وجرت دماؤهم فيها ، وأبين دليل على سيرتهم فى التاريخ الطويل الذى كتب معهم سطور المجد تلك القرون الطويلة التى عاشتها دولتهم وحضارتهم .

أول تلك الخصائص التى نلاحظها فى العرب جماعات وأفرادا خاصية ظاهرة لمن يتتبع أحوالهم ، وحركاتهم ، وأساليبهم فى العمل وفى سلوكهم فى السلم والحرب ، ونعنى بها الانفعال والسرعة .

فالشعب العربى منفعل سريع الحركة ، لعله من أكثر الشعوب تميزاً بهاتين الصفتين ، وكثيرا ما يبدو الانفعال مقدمة للعمل السريع العاصف . ويظهر هذا الطَّبع فى صورته الواضحة

فى عصر ما قبل الإسلام ، والعرب فى طفولة حضارتهم ، ونفوسهم لا تزال بكراً لم تغلفها الحضارة بلفافاتها التى تحجب ما يعمل داخلها ، وسلوكهم لا يزال فطرياً لم يهذب منه التطور والتحضر ، ولذا نرى الانفعال والسرعة متمثلين بصورة مادية فى حياتهم ووقائعها اليومية ، وفى آدابهم وما تحمله من انعكاسات لتلك الوقائع اليومية ، وما تكشفه من دفائن نفوسهم الخفية التى تثور وتنفر كالزبد فى أوقات الانفعال والعمل .

وقد كان الانفعال بادياً فيما طبع حياتهم من عنف ، فالقتل كان وسيلة يسيرة يلجأ إليها لبلوغ غرض ، أو للتخلص من عائق ، أو لمجرد التنفيس والتشفى ، كذلك كانت حياتهم تدور حول سرعة التأثر وسرعة الانقضاض ، وسرعة الكر والفر . فكانت حياة غير مستقرة ولا منظمة التنظيم الإنسانى الذى يسوده الإيمان بالحقوق والواجبات ، لذلك ضيعهم الشقاق والاختلاف زمنا ، ولكن هذين العنصرين وإن كانا مدعاة لما دب بينهم من خلاف ، وسبباً فى ضيعتهم تلك الحقبة من الزمان إلا أنهما كانا كذلك سبباً فى خشية من حولهم من الطامعين فيهم ، المتربصين بمصايرهم الحين لانقضاض يغنمونهم فيه . فقد كان انفعالهم وسرعة عملهم دافعا لرد كل عدوان بسرعة وقوة وحسم ،

مهما كان ذلك العدوان ومهما كانت القوى التى تحركه . ردوا عدوان الفرس والروم ، وأين كانوا هم من الفرس والروم ؟ . . وردوا عدوان جيش الحبشة فى تصميم وعزم .

ووقائع التاريخ تروى لنا فصولا مسهبة ، ولسنا بصدد السرد ، إنما تكفى الإشارة للدلالة، وحسب الأدب معبرا عن هاتين الخاصيتين ، إذ يقول شاعرهم :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طـــاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
فى النائبات على ما قال برهانا

كذلك تروى قصصهم وأساطيرهم ضروبا من الأحداث التى كان فيها الانفعال عملا حاسما ، ورووا تلك القصص والأساطير وخلدوها ، ورددها خاصتهم وعامتهم ، دلالة على تجاوبهم معها ، وتقديرهم لأحداثها وسلوك أبطالها . ولعل أكمل تلك القصص قصة « حرب البسوس » ، فهى تمثل الانفعال والسرعة فى الانقضاض فى أعنف صورة ، إلى درجة أن يقتل الرجل ابن عمه وزوج أخته وزعيم قبيلته انفعالا ، فجساس

ابن مرة يقتل كليباً زوج أخته جليلة إثر انفعاله لقتل كليب ناقة جارة له عجوز ، ومهلهل أخو كليب يشنها حرباً شعواء لا تبقى ولا تذر ، وتعصف بقبائل كثيرة ، وتبقى طويلا وكأن لم يكتب لها نهاية : أربعين عاماً متواصلة لا يخلع مهلهل ورجاله لباس الحرب ، ويقتل الرجال وتسبي النساء من أبناء العمومة ومن القبائل الأخرى المحالفة ، كل ذلك انفعالا وغضبا لمقتل أخيه كليب ظلما ، وانتقاماً عارماً لا يشفي غليله سيل الدماء الذى أراقه ، وغضباً مؤقتاً لا يطفئ لهيبه تلك النفوس التي اختطفت... وقد تغنوا بقوة الانفعال وبسرعة الرد ، وسموا ذلك كله جهلا ، ولم يكن خلقاً سيئاً ينفر منه الناس بل كان شيئاً من دواعي فخرهم ومباهاتهم . يقول شاعرهم :

ألا لا يجهلنْ أحد علينـــا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ولا يكون الجهل إلا في الثورة ، وليست كل حياتهم جهلا وانفعالا ، بل كان يحكم شخصيتهم صفات تأخذ بزمام ذلك الطبع المتمرد ، ومنها صفة الحلم ، وهي خاصية معارضة للجهل ، والجهل يبدو فيه عدم التحكم في النفس ، والاندفاع وعدم التعقل أو البصر بالعواقب ، لذلك غلب على عامتهم ،

والحلم بعكس هذا كله ، فيه تحكم وتعقل وتبصر ، لذلك كان خصيصاً بالصفوة والسادة ، وكان هذا الخلق ضابطاً لصمام حياتهم ، وكان المتحلى به مرموقاً لديهم لأنه الموئل إذا حزب الأمر ، فمجدوا الحليم ، ووصفوا أحلام سادتهم بأنها « تزن الجبال رزانة » .

يقول شاعرهم :

وفى كثرة الأيدى لذى الجهل زاجر
وللحلم أبقى للرجال وأعود

ويقول الآخر :

وأبذل معروفى وتصفو خليقتى
إذا كدرت أخلاق كل فتى محض
ويغمره حلمى ولو شئت ناله
قوارع تبرى العظم عن كلم مض

الشجاعة :

ولكن الحلم لا يكون إلا مع القدرة ، وإلا كان ضعفاً وجبناً ، وهذا بعيد عما عرف به العرب وتخلقوا ، فهم قوم

عرفوا بالشجاعة إلى حد الاندفاع ، وبالبأس إلى حد الظهور بمظهر القسوة ، وتمدحوا فى حروبهم بضروب من الشجاعة والبطولة ، تتجلى كلها فى مغالبة الصعاب والمخاطر ، واقتحام الشدائد مهما بدت مهولة مروعة ، وتتجلى كذلك فى مغالبة صعاب الحياة ، وما تضعه فى طريق الناس من عقبات ، وتتجلى فى صراع الطبيعة ومظاهرها المختلفة .

وهذه الخصال المتكاملة جديرة بمن يسكن صحراء متقلبة ، تضرب بينها النهود ، ويمتد التيه ، ويحكمها جو غير محتمل صيفاً وشتاء ، وتتعذر فيها الحياة المستقرة ، ويكثر النزاع على الكلأ حول عيون الماء .

ويصور الشاعر العربى تلك الشجاعة مطبوعة بالتصميم والعزم الذى لا يلين فيقول :

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه
ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه
ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا .

وتقتضى هذه الخصال جميعاً القوة ، فالقوة فى كل منها واضحة ، والحلم والشجاعة يحتاجان للقوة فهى ترفدهما ، فالحلم دون القوة لا معنى له ، والشجاعة والقوة صنوان لا يفترقان . ومجد العربى القوة فى شتى صورها . صورها المادية فى قوة الرجال الجسدية ، وقوه الحيوان الذى يشاركه فى حياته ، وتبدو فى صورها المعنوية متمثلة فى قوة الاحتمال لا الجزع والهلع .

وساد منطق القوة ، وأصبح قانونها القانون السائد المقدر من الجميع ، وسيطرت شريعة القوة على مجتمعهم . كذلك صبغت القوة أذواقهم ، فكان الجمال المفضل لديهم هو الجمال الممتزج بالقوة أو الذى ينم عنها .

ونرى نماذج لهذا كله فيما نطالعه من أدبهم ، فالرجل القوى ، هو المتكامل البناء الصلب المتماسك فى نحافة تمكنه من السرعة فى الحركة والخفة ، ويتمثل المعنى فى قول زينب بنت الطثرية تصف أخاها :

فتى قُدّ قَدّ السيف لا متضائل
ولا رهـــلٌ لباته وأباجله(١)

(١) الأباجل: العروق . تقول إنه نحيف صارم كالسيف ليس مترهلا منتفخ الصدر والعروق .

والرجل السمين الثقيل الجسم ، مدعاة لسخرية أهله والناس من حوله ، لأنه يصور لهم الكسل وعدم القدرة على الحركة ، والنهم بالطعام ، والاستئثار به لنفسه دون صحابه ، أو دون ضيوفه وعفاته . يقول الأعشى مادحا قيس بن معد يكرب :

ولم تسع للحرب سعى امرئٍ
إذا بطنه راجعتــه سكن
ترى همه بطراً خصره
وهمك فى الغزو لا فى السمن

ويقول عروة بن الورد :

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى
بجسمى من الحق والحق جاهد
لأنى امرؤ عافى إنائى شركة
وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

ويتطلبون عكس هذه الصفة فى المرأة ، لأن دورها فى الحياة غير دور الرجل ، فهى ربة البيت وأم الولد ، وينبغى أن لا تتبذل فتخرج إلى الأسواق لقضاء الحاجات ، بل ينبغى

أن تبقى فى البيت ترعى أموره وتقضى حاجة الأبناء . فأحبها إليهم المصونة المكنونة . ولتلك سماتها الجسدية التى تنم عليها فهى البيضاء السمينة ، لا الرفيعة السوداء المعروقة .

فهى هيفاء هضيم كشحها ۝ فخمة حيث يشد المؤتزر

يبهظ المفضل من أردافها ۝ ضفر أردف أنقاء ضفر

وإذا تمشى إلى جاراتها ۝ لم تكد تبلغ حتى تنبهر

والعربى مشبوب العاطفة ، رقيقها ، يتدله فى حبه ، ويذيب نفسه فتذهب حسرات إثر من يحب :

هواى مع الركب اليمانين مصعد

جنيب وجثمانى بمكة موثق

. . .

ألمت فحيت ثم قامت فودعت

فلما تولت كادت النفس تزهق

فلا تحسبي أنى تخشعت بعدكم

لشيء ولا أنى من الموت أفرق

وهذا الإحساس الرقيق والعاطفة الجياشة ، تمتزج بخاصية الشجاعة والانفعال فيتكون من هذا كله شخصية مشهورة في الأدب العربى هى شخصية « عنترة » . وتصور قصته شجاعة

فائقة وقوة فى مغالبة الأبطال تصل لدرجة القسوة أحياناً ، هذا كله مع حب رقيق وتدله ، وتعجب لتجاور هاتين الخصلتين فى نفس بشرية ، لكنها شخصية بطولية تصور جانبين بارزين من جوانب الشخصية العربية أصدق تمثيل . يقول عنترة :

إن طيف الخيال يا عبل يشفى
ويداوى به فؤادى الكئيب
وهلاكى فى الحب أهـون عندى
من حياتى إذا جفانى الحبيب
يا نسيم الحجاز لولاك تطفى
نار قلبى أذاب جسمى اللهيب
لك منى إذا تنفست حـر
ولرياك من عبيـلة طيب

ويقول – ولم يشغله القتال والضرب عن حبها :

ولقد ذكرتك والرماح نواهـل
منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنهـا
لمعت كبـارق ثغرك المتبسم

ويقول الآخر فى المعنى نفسه :

ذكرتك والخطىّ يخطر بيننا
وقد نهلت منا المثقّفة السمر

فوالله ما أدرى وإنى لصادق
أداء عرانى من حبابك أم سحر

فإن كان سحرا فاعذرينى على الهوى
وإن كان داء غيره فلك العذر

وتتمثل العاطفة المشبوبة والتدله فى الحب فى أقوى صورها عند شعراء بنى عذرة ، وتروى كتب الأدب طرائف وشعراً كثيراً تدل أبين الدلالة على تأصل هذه الظاهرة فى النفس العربية بشكل يندر أن تجد له مثيلا .

وهذا الحب المشبوب والعاطفة العارمة نحو المرأة تحكمها خاصية القوة التى طبعت عليها النفس العربية ، فهذه المرأة التى يهواها ويتدله فى حبها ، ويحرص عليها الحرص كله يرى بعضهم أنها لا تنجب الولد النجيب الشجاع إلا إذا غشيها كرها ، أو خائفة متوجسة مروعة ، وهذا ما يعبر عنه الشاعر بقوله :

حملت به فى ليلة موءودة
كرها وعقد نطاقها لم يحلل

فأتت به حوش الفــؤاد مبطنا

سهدا إذا ما نام ليل الهوجل

وعجيب حقاً أن تمتزج الخلتان : حب إلى درجة التفانى ، ورغبة عارمة فى إرغام من يحب على ما لا يحب ، وقد يفسر لنا هذا التصرف — كما قلت — أن نأخذ بعين الاعتبار بخصائص الانفعال والقوة التى غرست فى النفس العربية .

ومع ذلك فإن العاطفة الصادقة حقيقة كامنة فيها ، لا تتمثل فيما بين الرجل والمرأة فحسب بل تتمثل كذلك فيما بين الرجل والرجل من عاطفة صادقة باقية ، تقوم على الإخلاص والوفاء ، والمناصرة والتغاضى عن الهنات :

وإنى أخوك الدائم العهد لم أخن

أبزك خصم أو نبا بك منزل

أحارب من حاربت من ذى عداوة

وأحبس مالى إن عزمت فأعقل

وإن سؤتنى يوما صفحت إلى غد

ليعقب يوما منك آخر مقبل

وتستمر هذه الصداقة طالما كان التبادل العاطفى والمودة

رائديها ، ولكنها تنقض إذا لم يتوفر هذا التبادل ، أو إذا أساء طرف للآخر إساءات متوالية متتابعة ، ولم يبق أمل فى رتق الخرق وإعادة الصفاء ، عند ذلك تكون الجفوة ويكون الانقطاع والقطيعة ، وهى عندئذ قطيعة لا رجعة فيها :

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد
إليـــه بوجـــه آخر الدهر تقبـــل

السخاء :

ويتمثل سخاء النفس العربية واضحاً فيما طبع عليه العرب من عادة الكرم والإيثار ، وهذه الخاصية إنسانية فى دوافعها ، وتكاد أن تلزم العروبة وتختص بها ، وتصبح سمة باقية من سماتها تتناقلها أخبارهم عبر الزمن . ولذلك كان السخاء الممدوح ، الذى ينبع عن طبع أصيل وحقيقة باقية أصيلة ، لا نزعة طارئة عارضة ، وهى كذلك عاطفة تنم عن الإحساس بالرغبة فى إعانة الغير ، واقتطاع جزء من القوت أو النفس لذلك العون . لذلك نجد أن الكرم الذى يخرج عن فضل وغنى أقل فى عرفهم من الذى يخرج عن حاجة وضرورة . كذلك الكرم الذى يشوبه التفاخر والتباهى ، فهو عندهم ناقص غير حميد .

والسخاء فى سنوات الشدة وأوقات الضيق حيث يحرص كل إنسان على ما عنده حفاظاً على الرمق بالغ ذروته .

والكرم بهذه الصورة التى عرضناها صفة إنسانية نبيلة تنبع عن حب للإخاء والتعاون والتعايش ، وفضيلة عظيمة مصدرها التعاطف والإحساس بالرابطة بين الإنسان وأخيه ، رابطة عمادها حق كل إنسان على أخيه فى كفالته وعونه ، لأن الحياة التى تبذل خيرها لواحد وتحرم الآخر منه لا ينبغى أن تكون حقًّا للمحظوظ دون المحروم ، فالإنسان غير الحيوان ، رزقه ميسر للقادر ، ولغير القادر فى أخيه حق العون وحق الإنسانية . فدوافع العون المتمثلة فى خاصة السخاء سمة إنسانية ، وليست مجرد مظاهر مادية من طعام وشراب ، وإيواء . . ونجدة . . .

يقول الشاعر القديم :

وما أخمدت نار لنا دون طارق

ولا ذمنـــا فى النازلين نزيل

وتمدحوا بصفة الكرم ، حتى اعتبروا خير المديح قولهم « جبان الكلب » ، و « كثير الرماد » يعنون كثرة ما يغشى

من الضيفان حتى يعتاد الكلب فلا ينبح ، وكثرة إيقاد نيران الطعام للمعتفين .

يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبـــل

ولما أن كان الكرم بهذه المنزلة فى نفوسهم ، صار البخل من أبغض الأشياء وأذمها لهم ، واعتبروا البخل طبيعة غير عربية ، لذلك رموا بها غيرهم من الأمم وتندروا بذكر الطرائف يسخرون فيها منه ومن معتاديه . وهجوا بالبخل فاعتبر أشد الهجاء ، وقديما قالوا إن أهجى بيت قالته العرب قول الأخطل :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم
قالوا لأمهم بولى على النار

صلة القربى والنسب :

والعربى حساس جدًّا لصلة الدم ، لأنه إنسان عائلى ، يجب أن يحيا فى عائلة ، وفى جماعة ويحافظ بقدر ما يستطيع على القربى ويدافع عنها بكل ما يملك . لذلك اشتدت النزعة القبلية فى نفوس العرب بصورة قد تبدو غريبة شاذة ، كما يبدو تمسك العرب بالأنساب وتسلسلها بصورة فريدة كذلك ،

ونرى العربى دائما يعتز بأصله ودمه ، يفخر بنسبه ونقائه فخره بأعز ما يملك فى الحياة :

علونا إلى خـــير الظهور وحطنا
لوقت إلى خـــير البطون نزيل
فنحن كماء المزن ما فى نصابنا
كهام ولا فينا يعد بخيـــل

ولعب النسب فى حياة العرب أدوارًا عظمى ، كيّف نشاطهم الاجتماعى والسياسى وأثر فى الأدب وقيم الحياة ، والفضائل والرذائل ، والنظرة إلى الشعوب الأخرى غير العربية التى لا تولى النسب تلك الأهمية .

واهتمامهم بالأنساب جعلهم حساسين شديدى الحساسية من ناحية المرأة ، العار كل العار إذا ما مس شرفها أو عرضها ، وإنه لأشد وقعا على نفس العربى من وقع الأسنة أن تسبى أو تتهم . وما دفعهم دفعاً إلى وأد البنات تلك العادة الذميمة البعيدة عن الإنسانية غير الحفاظ على نقاء الأصول وخلوص الروابط الأسرية ، وإن بدا أن الحاجة أيضًا من الدوافع إلى تلك العادة، إلا أن الأصل فيها هو الحفاظ على المرأة من أن تبتذل

بسبب الفقر . كذلك دفعهم الحفاظ على الأنساب إلى فرض الحجاب وخاصة فى العصور التى يُخشى فيها من الاختلاط لكثرة الإماء والجوارى . وأطلقوا اسم المصونة والمكنونة نعوتا لكمال المرأة ، وجاءت هذه النعوت فى القرآن الكريم ، وفى الشعر وما يروى من الأخبار والقصص . وكان الرجل يتخذ لنفسه امرأة من الحرائر يجعلها مصونة فى بيته ، تنجب له الولد الذى يخلفه ، وله مع ذلك أن يلهو ويتخذ لنفسه الإماء والسرارى .

الواقعية والبساطة :

ونظرة العربى للحياة نظرة واقعية حسية لا تهويم فيها وراء الخيال ، لهذا لا نجد عند عرب الجاهلية آثارا تنم عن التأمل فى عوالم خفية غامضة كالأساطير التى نجدها عند كثير من الأمم الأخرى كاليونان والهنود والفرس ، ولا نجد عندهم أنماطا معقدة من الديانات مثلما نجد عند المصريين القدماء ، وحياة العرب موكلة بواقع حياتهم ، ووقائع أيامهم قبل الغد المرتقب . لهذا نجد أن الوثنية ظهرت عندهم متأثرة بوثنيات الأمم المجاورة ، لا وثنية أصيلة نابعة عن مشاعرهم وحاجاتهم وفلسفتهم فى الحياة والكون . لذلك كانت وثنية سطحية غير عميقة الجذور فى

نفوسهم . واتخذوا الوثنية وسيلة للحياة الواقعية المادية ، للتجارة والكسب .

كان الجانب الروحى عندهم غير مستقر ، لانشغالهم بالواقع ، وبقسوة العيش فى الصحراء ، وضيق الأرض التى يسكنون بهم وبمعاشها . شغلهم البحث عن القوت عن البحث فى الخالق والخلق ، عن التأمل والتفكير والعبادة المستقرة ، عن تكوين فكرة راسخة عن الوجود كله وصلات الكائنات فيه .

كذلك كان لوضوح الحياة فى الصحراء وصراحتها أثر فى سلوكهم وطبائعهم وميلهم إلى البساطة ، فكل شىء أمامهم جلى لا يدعو إلى التفكير الطويل ، والظواهر الطبيعية التى تشاركهم فى الصحراء ظواهر مكررة معتادة ليست مفاجآت غير منتظرة ، وليس فيها عنف ، أو اختلاف ، فليست هناك الجبال الشاهقة ، ولا البحار الزاخرة الهادرة ، وليس بها الصواعق المهلكة ولا الرياح العنيفة العاصفة ، ولا الزلازل المدمرة والبراكين التى تقذف بالحمم ، ليس فيها هذا كله ، فلم يسع العربى فى حياته إلى جهاد الطبيعة ومغالبة عناصرها أو الاستعانة عليها بقوى خفية ، أو التقرب إلى قوى ورموز لقوى يعتقد أنها تصرفها أو لها شأن عليها .

البيـــان :

وللعرب البيان الفصيح الذى يميزهم ، والذى يعتقدون أنه خاصية لهم دون البشر جميعا ، وأن الله تعالى قد حباهم به وجعل معجزته فيهم على لسان النبي العربى معجزة بيانية هى « القرآن » وهى معجزة دالة على مكانة العرب فى البيان ، كما كانت معجزة عيسى عليه السلام « إحياء الموتى » فى قوم اشتهروا بالطب ، وكما كانت معجزة موسى عليه السلام شق البحر وإحالة العصا حية فى قوم عرفوا بالسحر .

وافتخر العرب بالبيان واهتموا به أشد الاهتمام ، وأى اهتمام أكثر من أن الشاعر العربى كان الزعيم والحكيم وصاحب الأمر والمشورة ، وأن الشعر والخطابة كانا ميزتين يمتاز بهما الرجل بينهم ، ويحتفل بها القوم أشد الاحتفال فيعرسون إذا نبغ فيهم شاعر أو خطيب ويهنئ بعضهم بعضا ، وتغبطهم القبائل وتحسدهم ، لأن الخطيب أو الشاعر بينهم كان بمثابة اللسان الناطق بالفضائل ، الذاب عن التهم التى يوصمون بها .

وقد أدى البيان للعرب خدمات جلى ، منها أنه وحد بينهم فى الجاهلية وقرب بين نفوسهم ، وعطف أفئدتهم . يقول الدكتور طه حسين :

« إنما الذى استطاع أن يؤلف شيئاً ما بين هذه القبائل المتفرقة هو الشعر الذى لم يكد ينشأ حتى فرض لهجة بعينها على الأمة العربية كلها فى جميع أطرافها وأقطارها من الجزيرة العربية. فكان الشاعر العربى إذا أنشأ قصيدة وأنشدها فى ناد من الأندية فهمها عنه الناس مهما تكن قبائلهم ، ومهما تكن لغاتهم الخاصة ، ثم لم يكتفوا بفهمها وإنما كان الرواة يتناقلونها عن الشاعر ، وكانت القصيدة لا تكاد تنشد حتى تشيع فى الجزيرة العربية . . . فأول توحيد للعقل العربى إنما جاء من هذه الناحية، فالمكون الأول لإيجاد وحدة بين هذه القبائل العربية إنما هو الأدب والشعر بنوع خاص »[1].

ثانيا ـــ التاريخ والحضارة :

ويختلف التاريخ العربى عن غيره من تواريخ الأمم الأخرى بعنصر هام وطابع واضح يميزه ويدفع الحضارة العربية ويصبغها بصبغته ، ذلك العنصر هو الإسلام الذى جاء به محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه. والإسلام هو دين العروبة

---

(١) من خطبة له عن « القومية العربية والأدب » فى مؤتمر الأدباء العرب الثالث بالقاهرة سنة ١٩٥٧ (مجلة أعمال المؤتمر ص ٦٠) .

المنبثق من صميم حياتها ، وهو الذى أتم صقلها وتهذيبها وأودع فى الشعب العربى طاقات جديدة ، وصفى طاقاته الموروثة ، وشذب خصائصه التى أشرنا إليها ، فاستأصل منها الشاذ النافر الذى كان من أسباب الضعف ويستهدف المصلحة الفردية أو المحدودة ، واحتفظ ببعض تلك الخصائص ونماها ، وعدل فى بعضها الآخر وطوره ، وأدخل فى الشخصية العربية عنصر الروح وقواه إلى جانب عنصر الواقع والمادة ، ونظم للعرب حياتهم ، وجعل لها هدفاً تسعى إليه ، وغاية سامية من وراء ذلك السعى . فبعد أن كان سعى العربى بدداً لا هدف له غير ما يحصل عليه لشهوة بطنه أو فرجه ، أصبح يسعى لشىء آخر وتتعلق نفسه بعالم آخر وراء المادة ، بعد هذه الحياة الدنيا ، ويتعلق قلبه ببارئ كريم عادل قوى قادر ، تتمثل فيه الصفات المثلى التى ينشدها الإنسان . وهكذا دعا الإسلام العربى ليسمو عن واقعه وحسه ، ويصفى أكدار حياته بحياة قلبه .

ولم ينسخ الإسلام النظرة المادية والواقعية ، بل اهتم بتطويرها ودعا الناس إلى الاهتمام بدنياهم إلى جانب الاهتمام بدينهم ، كذلك وجه عنايته إلى رفاهية العرب ، وتكامل سعادتهم بسعادة الروح والجسد ، فسعادتهما مكفولتان فى الإسلام ، ولا يطغى

حق واحد منهما على الآخر . وهذه المعادلة بين المادة والروح ، بين الدنيا والآخرة ، بين العقل والقلب ، مسايرة لطبيعة الإنسان وخلقه ، فهو مادة وروح ، جسد وقلب ، كان المجتمع العربى قبل الإسلام يحيا على واحدة منهما ، ويهمل الأخرى ، فكانت النتيجة الانغماس فى تلك الفوضى ، وعدم الاستقرار ، والإخفاق فى الوصول إلى غاية .

ويكفل التعادل بين القوتين فى الناس البقاء للإنسانية والسير قدماً ، فالقوانين المادية الوضعية وحدها لا تفى برفاهية الخلق ، ولا تنهض وحدها بحل مشكلاتهم .

وقد سن الإسلام القانون الصالح لسعادة البشر : السلام ، والمساواة ، وتعادل الفرص بين الناس جميعا . فالسلام رسالة الإسلام للبشرية ، السلام من اسمه ، من التحية التى سنها ، من افتتاحاتهم فى القول والعمل ، من تردد اسمه فى الصلاة . . . السلام أنشوة الإسلام تتردد على لسان كل مسلم تذكرة وإقراراً له فى القلب .

والسلام ، والإخاء ، والمساواة معالم بارزة فيه ، فالدعوة إلى الإخاء والتعاون واضحة لا تحتاج إلى دليل ، والله تعالى يقول فى كتابه (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا

نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) . وفى الحديث الشريف : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . فقد فرض على الناس الاجتماع وضم الصفوف بصورة عملية متكررة كل يوم ، بل فى اليوم مرات بما فرض عليهم فى العبادات من صلوات الجماعة فى دائرة الحى ، والاجتماع كل أسبوع فى صلاة الجمعة فى دائرة البلد ، مدينة أو قرية ، والاجتماع كل عام فى مكة حول البيت العتيق فى موسم الحج فى دائرة العالم الإسلامى والعربى .

ودعا الإسلام إلى التعاطف وحسن الجوار ، وخاطب فى العرب خلق النجدة ، ووصاهم بالجار والعون ، خالصاً لا افتخاراً ولا عصبية ، بل إخاء ومودة .

كذلك ذم التحاسد والتنافس والتباغض ، ودفع الشرور الناجمة عن الاستغلال لمواطن الضعف فى الناس ، الضعف فى البنية ، أو الضعف بسبب قلة المال والفقر ، أو الضعف للضعة وتخلف النسب . فكفل للضعاف البنية الحماية ، فالطفل يحميه الإسلام ويحمى حقه ، والرجل الضعيف مقدم

على الرجل القوى ، لأن الأول غير قادر ، فولى الأمر يتولى عنه أمره وتحصيل حقوقه بين الناس . وقد قال أبو بكر رضى الله عنه قولته المشهورة : « الضعيف عندكم القوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى عندكم الضعيف عندى حتى آخذ الحق منه » .

والضعيف بفقد العائل ، اليتيم ، مقدم فى الإسلام ، ملحوظ مكفول الرعاية . نص القرآن على مراعاته فى مواضع كثيرة : (وأما اليتيم فلا تقهر) . كذلك الفقير يحتفظ له بحقه فى العيش الكريم لا يزحمه الغنى ولا يغصبه ، ويستأثر بالعيش وطيب الحياة دونه ، بل يكفل الإسلام له الحياة العزيزة، فالإنسانية عزيزة فى الإسلام ينبغى أن تكرم ، ولا يصح أن تهان . وعلى الغنى ضريبة يؤديها للفقير من ماله هى الصدقة والزكاة ، وليست تفضلا ولا هبة من الغنى ، كما أنها ليست تسولا ولا ضعة من الفقير ، بل حق معلوم مفروض لا تملص منه ولا فرار : (فى أموالكم حق معلوم للسائل والمحروم). والصلاة مقرونة دائما بالزكاة ، فهى فريضة ، تبدو قيمتها ، وخطورتها من اقترانها بحق الخالق ، فالصلاة حق لله على الناس ، والزكاة حق للإنسان على أخيه الإنسان للفقير على الغنى ، وهو حق

يعدل فى أهميته حق الخالق على خلقه لقاء ما وضع بين أيديهم من النعم ويسر لهم فى الحياة الدنيا من سبل العيش . فالصلاة شكر على تلك النعم ، والزكاة كذلك اعتراف بفضله تعالى وتحديث بنعمه .

وضروب الحماية التى سنها الإسلام للفقير ضد الطغيان من أصحاب المال — كثيرة ، منها ذلك الجزء المختص بالصدقة والزكاة ، ومنها ما يؤديه كل مرتكب مخالفة لأوامر الدين وشرائعه من فداء مالى فى صور مختلفة ، كتقديم المال للدولة اعتذاراً عن المخالفة ، أو التعهد بإعالة جماعة من الفقراء . كذلك حرم استغلال رأس المال للمحتاج عن طريق الربا الفاحش ، لأن الربا كسب غير مشروع ، واستغلال سيئ للحاجة ، وهو فى الوقت ذاته إعطاء رأس المال الحق فى الكسب دون نظر للجهد البشرى ، والإسلام لا يعترف بحق للمال منفصلا عن صاحبه الإنسان ، فالإنسان بسعيه لا بماله .

والحقير الوضيع اجتماعيًا فى الإسلام غير موجود ، ليس فى الإسلام إنسان حقير وآخر شريف ، ليس فيه من هم من نسل الآلهة ، وآخرون من البشر ، أو من هم أبناء الشمس وآخرون أبناء الطين . فالناس جميعا سواسية خلقوا من نطفة واحدة ، كلهم

لآدم وآدم من تراب ، وكلهم من ذكر وأنثى . والأنساب فى الإسلام موضوعة ، ليس فيه شرف راجع للدم وعراقة الآباء والأجداد ، ليس للعنصرية دخل فى تميز جنس عن جنس : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، الشرف فى الحياة بالسعى والجهد ، وبالكسب الشخصى ، وفى الآخرة بالعمل الطيب وتقى الله ، والسيرة الحسنة بين عباده .

وهكذا نجد أن القوة لم يعد لها تلك القيمة القديمة التى برزت فى مجتمع عرب الجاهلية بل حل محلها شىء آخر هو الحق ، حق المصلحة العامة ، حق الإنسانية ، حق الخالق سبحانه . وأصبح هناك شىء اسمه الخير ، وآخر اسمه الشر فى ميزان العدل ، وميزان الصالح الإنسانى ، ولم يعد للقوة اعتبار فى هذا الميزان الذى وضعه الله للناس :

(والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان)

وهذا الميزان دقيق ، جانباه الخير والشر ، لا توسط بينهما : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره) ، (فأما من ثقلت موازينه ، فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ما هيه ، نار حامية) .

والإنسان المثالى الكامل ليس ذلك الإنسان الذى تتمثل فيه خصائص القوة ، والعنف ، والقدرة على أخذ حقه قسراً ، والقدرة على الكر والفر والمبادرة والقتال فحسب ، بل جدت فضيلة أخرى هى الإيمان وهو مجموعة الخصال الإسلامية ، وعلى رأسها الاعتقاد فى الله الخالق والقوة المهيمنة على الكون ، الرقيب العادل القادر ، قدرته فوق كل قدرة ، وقضاؤه فوق كل قضاء .

وصار طريق الخير هو العمل الصالح للفرد ، لنفسه وجماعته ، والإنسانية جميعا ، يتصل فيه بالله صلة قلب وروح وعمل .

وطريق الشر عمل طالح وتحطيم للفرد ، لنفسه ومجتمعه والإنسانية جمعاء ، وقطع للصلة بينه وبين ربه .

كذلك دعا الإسلام العرب والناس جميعا إلى ترك الانفرادية والانعزالية التى كانت مسيطرة من قبل ، وأصبح الإسلام يعتز بالجماعة ، الرأى للجماعة ، والصلاة للجماعة ، والحج للجماعة .

وصار العمل الموحد فى سبيل الغاية المشتركة هدف الناس جميعا ، فكلهم عباد الله ، وكلهم مشتركون فى هذه الصفة ، متساوون فيها ، ليس لأحدهم فضل ولا تقديم إلا بمقدار ما فى قلبه من الإخلاص وفى سعيه من عمل مثمر يعود على البشر بالخير والسعادة .

الإسلام وبناء القومية العربية :

إلى جانب هذا التطهير والتهذيب للنفوس ، وتحرير المجتمع العربي من الشوائب والمفاسد المتمثلة فى تقاليدهم وعاداتهم ، وفى قيمهم ونظرتهم للحياة ، والصلات المختلفة بين الناس ، وطرق العيش وتحصيل الكسب ، كذلك تحرير معتقداتهم وإرسائها على قواعد ثابتة مكينة ، إلى جانب هذا كله نجد الإسلام قد وضع الأسس للتاريخ المجيد للأمة العربية ، وهو الذى شيد على تلك الأسس « القومية العربية » بمفهومها الذى نعرفه الآن ، متمثلا فى اللغة والتاريخ والحضارة ، كذلك كان الإسلام سببا فيما نحيا فيه الآن من ثمرات تلك القومية . فقد دعا العرب المتباعدين المتنافرين إلى تكوين أمة مترابطة متجانسة موحدة الأهداف والآمال : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) و (كذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

فهذه الآيات واضحة الدلالة على أن الإسلام خلق هذه

الأمة العربية ورفع مكانتها بين الأمم وشرفها بهذه الرسالة السامية ، وأعطاها من تراث العلم والمعرفة ما تستطيع أن تقف به بين الأمم مفاخرة معتزة .

وخلق الإسلام الأمة العربية بتوحيد قبائلها وفض منازعاتها ، وتوحيد جهادها ، ورسم أهدافها لخير العرب وخير البشرية ، فخرج العرب من الشقاء والتخلف والضياع إلى النعيم والمجد والسؤدد والازدهار وبعث فى نفوسهم العزة القومية ، ومحق العزة القبلية الفارغة ، فأصبحوا فى أمتهم وقوميتهم الجديدة موضع الاحترام والتقدير والإجلال ، بعد أن كانوا موضع الاحتقار والازدراء ، مستضعفين فى الأرض تتنازعهم الأمم بين روم وفرس .

وبعد أن أتم الإسلام توحيد جبهته الداخلية فى بلاد العرب فى الجزيرة ، وبعد أن وحد أطرافها ، وقضى على الحواجز التى كانت تحجز بين قبائلها ، وأزال العصبيات بينها ، وبنى على أنقاض نظمها القديمة نظاما جديدا موحدا ، له دستوره ، وتشريعه وأهدافه ، أطلق تلك القومية الناشئة ، وفتح أمامها الطريق لإبلاغ الرسالة للناس جميعا فى أقطار الأرض ، وهكذا كل أمة تنبعث فى داخلها ثورة « تقدمية » ترى فيها تخليصا

للبشر مما يسوده من فساد ، تحاول أن تبسط دستور هذه الثورة وقيمها على مستوى عالمى شامل . كان هذا حال المصريين القدماء فى أوج حضارتهم ، أرادوا أن ينشروا تلك الحضارة فيمن حولهم من الأمم ، وكان هذا حال اليونان بعد أن بلغوا أوج ازدهارهم الفكرى فى عصر الإسكندر المقدونى ، وكان هذا أيضا حال الرومان حين بلغوا درجة من الرقى الدستورى والحضارى أرادوا أن يبسطوه على دول الشرق والغرب وكذلك الحال فى دول التاريخ الحديث وثوراته وحركة النهضة الأوربية الأخيرة والثورة الفرنسية والتوسع الأوربى ، ثم التوسع الأمريكى كل هذه شواهد مكررة .

ويختلف الإسلام عن الحركات التحررية السابقة واللاحقة بأنه سن دستورا الحياة للناس جميعا منذ بدء الدعوة ، لم يكن دستوره مختصًّا بالشعب العربى وحده بل كانت الدعوة للناس كافة . وهكذا تحركت القوى العربية للتوسع فيما حولها من البلاد .

وبدأ التاريخ العربى الإسلامى يكتب سطور المجد ، فكان للأمة العربية ذلك السجل الحافل الملىء بالمفاخر العربية والتجارب . وكان دور الإسلام فى هذا التاريخ هو الروح

والدافع ، أو القوة الكامنة ، وكان العرب الأداة المنفذة ، أو الصورة المادية للحركة . لقد سن الإسلام الجهاد وأثاب عليه ، فاستعذب الناس بذل النفس فى سبيل الغاية الجماعية ، فى سبيل الرسالة التى يحملونها للبشر . وبهذا بدأت حركة الغزوات الكبرى والفتوح العربية فى عهد الخلفاء الأربعة ، وعهد بنى أمية ، والعباسيين . وامتدت رقعة العالم العربى من بلاد الهند وحدود الصين إلى المحيط الأطلسى ومن تركيا شمالا إلى السودان جنوبا .

وقامت الدول والإمارات هنا وهناك فى مختلف العصور منذ القرن الأول إلى القرن الرابع عشر اتصلت فيها الأمة العربية بكثير من الدول والأجناس . فاختلطت وتعاونت ، واصطدمت وتعاركت وتصارعت صراعا شديدا ، صراع حياة وموت ، واستطاعت الأمة العربية خلال هذه الاتصالات والاصطدامات أن تنمو وتزدهر ، واضطرت أحيانا أن تغلب على أمرها إذ تتألب عليها عناصر البغى والعدوان ، ولكنها كانت تعود ، وتبعث من جديد أشد عودا وأقوى عزيمة .

ولعل أخطر العناصر التى تألبت على الأمة العربية فى تاريخها الطويل : الشعوبية ، والعنصرية الفارسية ، ثم الترك ،

والمغول ، والصليبيون ، والعثمانيون .

أما الشعوبية والعنصرية الفارسية فقد هاجمت القومية العربية عقب حركة الفتوح وتكوين الأمة العربية الكبرى ، وقد عز على الفرس أن يخلفهم العرب وينتزعوا منهم ملك تلك البلاد الواسعة ، التى كانوا هم سادتها ، والتى كانوا فى صراع مع الروم من أجلها . كذلك عز عليهم أن يصبح العرب ذوو المجد الحديث والتاريخ القريب سادة الفرس ذوو المجد العريق والتاريخ التليد ، وعرف الفرس أن وراء الثورة العربية والمجد الذى أحرزوه ذلك الكتاب « القرآن » الذى رسم لهم طريق الحياة الكريمة ودفعهم دفعا إلى تحقيق غايات نبيلة وهمم واسعة فى العالم من حولهم ، كذلك عرفوا أن الشخصية العربية تتمتع بمجموعة من الخصائص هى التى أشرنا إليها ، وأن هذه الأمة الفتية لم ينخر فى عظامها هرم الحضارة وداء الأمم فحاولوا جهد طاقتهم أن ينفذوا إلى العروبة فينفثوا سمومهم فى عقيدتها وقيمها حتى تهتز تلك العقيدة وتتخلخل ، وتتحطم القيم ولا يبقى بين أيدى العرب ما يعتزون به ، ويحافظون عليه . وهكذا تدخلت عناصر منهم فى صفوفهم فبعثوا الاضطراب وأدخلوا فى عقائدهم البسيطة السمحة أمشاجا من العقائد القديمة استطاعوا أن يخلطوها

بالعقدية الإسلامية ، وأن يموهوا على العرب ويزينوها لهم ، فقامت المذاهب والشيع ، والملل والنحل ، وكانت تصطبغ الصبغتان السياسية والدينية معا ، وهكذا شاهدنا طوال القرنين الثانى والثالث ، بل ابتداء من النصف الثانى من القرن الأول صراعا قويا عنيفا بين المذاهب السياسية التى لونتها صبغات عقدية وافدة ، بين الأموية والمروانية ، والشيعة العلوية ، والخوارج ، والمعتزلة ، والصابئة والمرجئة . . .

ولم يقتصر عمل الشعوبية والعصبية الفارسية فى هدم القومية العربية على التداخل فى الصراع السياسى لتفتيت وحدة الصف العربى ، وتأليب أبناء العروبة بعضهم على بعض حتى يختلفوا فيفترقوا وتذهب ريحهم ، بل وجهوا همهم ناحية القرآن ، فحاولوا أن يدسوا فى أذهان العرب الشكوك والمطاعن فيه ، بل دسوا الأحاديث لخدمة أغراضهم ، وامتد عبثهم إلى اللغة والشعر فانتحلوا فيهما الشىء الكثير . وحملوا على العروبة باعتبارها عنصرا ممتازا كما كان العرب يعتقدون فى أنفسهم ، فطعنوا فى التقاليد العربية ، هاجموا النسب ، ودسوا الأنساب لمن ليس له فى النسب نصيب ، وجمعوا المثالب وشهروها على الملأ حتى يقف العرب على عيوبهم ومخازيهم فيستخزون، ولم

يتورعوا عن أن ينشروا لقريش موضع التقديس والقيادة مخازى اصطنعوها .

كذلك أشاعوا فى المجتمع العربى الانحلال بضروب اللهو بالجوارى ، والخمر ، وبالتحلل الدينى ، فأشاعوا الزندقة وصارت هذه آفة المجتمع العربى الإسلامى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة . وكانت النتيجة طبيعية بعد هذا ، أن ينصرف العرب عن أهدافهم ، عن الجهاد والدعوة إلى تحصيل المال ، والعبث ، واستولى الفرس على ناصية الأمور ، وكانت لهم القيادة الفعلية والرأى والمشورة ولم يعد للعرب غير المنزلة الثانية ثم الثالثة . . .

وشارك الفرس الأتراك فى التآلب على الدولة العربية ، وقد بدأ هذا التآمر بعد تكاثرهم فى قصر الخلافة العباسية فى صورة حريم وخدم وقادة وجند ، وعبث الأتراك بالخلفاء ومصاير الخلفاء حتى صارت الخلافة ذات المنزلة المقدسة بين المسلمين أضحوكة ولعبة يستخزى منها المسلمون والعرب وكان تآمر الترك أشد سفوراً وقحة ، لأنهم لم يملكوا من الثقافة والمجد ما كان يملكه الفرس .

وجاء المغول من الشرق كالريح العاصفة ، يزحفون فى جحافل عديدة حانقة غاضبة ، بربرية تكتسح المدن العربية

الإسلامية ، وتحطم فى طريقها كل شىء من معالم الحضارة ، حتى الكتب ودور العلم أحرقوها وداستها أقدام الخيل ، وبعثرت الكتب التى تحمل خلاصة الثقافة العربية فى دجلة وعبر عليها المغيرون .

وقابل الزحف المغولى من الشرق زحف آخر حانق ساخط من الغرب ، حيث تدافع الصليبيون من دول أوربا ، دفع بهم إلى أرض العروبة أيضا الحسد والحقد والطمع والرغبة فى امتلاك ما فى أيدى العرب من ثمار حضارتهم الزاهرة ، فأقبلوا فى جحافل متتابعة كأرجال الجراد ، أهاجها القحط والجدب فى بلادها إلى أرض العروبة الخضراء الزاهرة ، فجاءوا يدمرون ، ويرثون ، ويقيمون فى قلب الأمة العربية فى الشام والأندلس الإمارات الصليبية ، ويحاولون فى مصر ولكنهم يبوءون بالفشل ويرتدون خائبين .

وكان الأتراك العثمانيون خاتمة المطاف ، وكانوا أشد العناصر خطورة على الأمة العربية ، لأنهم كانوا مسلمين ، لأنهم كانوا يشتركون مع العرب فى الإسلام ، واغتصبوا الخلافة لأنفسهم ، واغتصبوا معها كل مقومات الحضارة ، فانتهت الحضارة الزاهرة إلى خراب فكرى وموات سياسى . وظلوا طوال حكمهم الطويل

الذى امتد طوال خمسة قرون ، يستنزفون دم العروبة ، فجفت عروق الحياة فى شجرتها النضيرة ، ولم يبق فيها غير هيكل قائم بلا روح . وقد سلطهم الله على القومية العربية ، فصاروا لها حربا ، وأسكتوا لها كل لسان ، وحطموا كل جارحة . . .

ولم يخفت صوت العروبة مع ذلك فى النفوس ، بل ظلت القومية مشتعلة فيها فى أشد الأوقات ظلمة ، وكان الأدب دائما المتنفس ، يذكر الناس ويجدد حيويتهم ، ويسرد الأمجاد الطويلة ، ويبث العزة ، ويحمل على التخاذل والهون ، ويحطم العناصر المخربة المتطفلة . وهذا المتنبي شاعر العروبة الكبير الذى عاش فى القرن الرابع فى الوقت الذى ساد فيه الترك يحمل على الأوضاع الشاذة فى الدولة العربية ، حيث يحكم الأغراب من العجم والترك ويسودون أصحاب الدولة الحقيقيين العرب فترى فى شعر المتنبي ثورة عارمة ، ونفسا عربية شامخة تسخر بانقلاب الأوضاع وتملك الخدم والعبيد ، لقد كان شاعرا ثائراً يمثل صحوة الروح العربى ، ونذكر بعض ما قال فى هذا الموضوع ، فمنه :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر

فالآن أقحم حتى لات مقتحم

ولأتركن وجوه الخيل ساهمة
والحرب أقوم من ساق على قدم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها
حتى كأن بها ضربا من اللمم
قد كلمتها العوالى فهى كالحة
كأنما الصلب معصوب على اللجم
بكل منصلت ما زال منتظرى
حتى أدلت له من دولة الخدم

ويعنى دولة الخدم الأتراك الذين تملكوا الدولة فى بغداد .

وقال :

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه وكان يبرى بظفره القلم

ويقول :

أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

وهؤلاء أيضا جماعات من الشعراء فى العصر الذى غلب فيه السلاجقة والصليبيون ، نذكر منهم الأبيوردى الشاعر العربى الذى رثى بيت المقدس بعد سقوطه ، واستنهض الهمم لاستخلاصه فقال :

مزجنا دماء بالدموع السواجم
فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه
إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فهيا بنى الإسلام إن وراءكم
وقائع يلحقن الذرا بالمناسم

. . .

أرى أمتى لا يسرعون إلى العدا
رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى
ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى
وتغضى على ذل بأيدى الأعاجم

لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى
فلا عطست إلا بأجدع راغم

دعوناكم والحرب تدعو ملحة
إلينا بألحاظ النسور القشاعم

تراقب فينا غارة عربية
تطيل عليها الروم عض الأباهم

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه
رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

وكذلك كان الحال فى عصر الحكم العثمانى فقد انطلق الشعراء يحملون على مفاسد العثمانيين ويستنهضون همم العرب كما سنرى بعد قليل .

ذلك هو تاريخ الأمة العربية قبل بعثها الحديث ، تاريخ ملىء بالأحداث والأمجاد والبطولات ، والأبطال الذين ما زالوا يحيون فى قلوبنا ووجداننا ، ويتمثلون فى خواطرنا ، وتتجسم لنا فى حياتهم وأعمالهم مثلنا العربية الإسلامية ، وخصائص العروبة والإسلام ، وما زال أولئك الأبطال يضربون للإنسانية المثل على صفاء العنصر العربى ، وقوته عبر الأزمان . كان

لنا فى هذا التاريخ محمد صلوات الله عليه بطل القومية وزعيمها الأول ، وأبو بكر وعمر بن الخطاب فيلسوف التشريع والحكم العربى ،وعثمان ،وعلى البطل العف ،وخالد بن الوليد المظفر عبقرى الفتوح ، وصلاح الدين الأيوبى الزعيم والقائد الإنسانى النبيل الذى وحد جهود الأمة العربية وقادها قيادة مظفرة للوقوف فى وجه الأطماع الصليبية ، وضرب أروع الأمثلة على سلوك العرب حيال أعدائهم ساعة النصر سلوكا إنسانيا .

هذا تاريخنا المشترك الذى تحيا الأمة العربية على تجاربه ، ونستعيد فى دعوتنا القومية ذكراه العطرة ، لنحيا بنفحاتها ، ونشد عودنا فى مواجهة الصعاب فى زحفنا نحو أهدافنا المنشودة .

ثالثا — اللغة والثقافة :

وتعتبر اللغة العربية عنصرا هاما فى تكوين القومية ، ويعتبرها بعض المفكرين على رأس العناصر جميعا ، والحق أن هذه اللغة العربية التى تربط العالم العربى من شرقيه إلى غربيه لم تنتشر هذا الانتشار ، ولم تحظ بهذا الخلود والبقاء الذى استمر ثلاثة عشر قرنا وأكثر إلا بفضل الإسلام . ونعرف أن العرب قبل الإسلام كانوا قبائل متفرقة بعضها يسكن شمال الجزيرة وبعضها

الآخر ينتشر فى وسطها ، وجزء منهم يستوطن اليمن والسواحل الجنوبية ولم تكن لهجاتهم كلها واحدة ، بل الاختلاف بين تلك اللهجات كان شديدا أحيانا لدرجة أن تصير بعضها لغات منفصلة ، وليست مجرد لهجات من لغة واحدة . وقد ذكر كثير من الباحثين فى تاريخ العرب واللغة العربية أن لغة الجنوب كانت تختلف عن لغات الشمال ، بل إن العرب أنفسهم ذكروا ذلك . ذكر ابن سلام مثلا عند حديثه عن الانتحال فى الشعر العربى أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول : ما لسان حمير بلساننا . أى أن لغة حمير الجنوبية لم تكن هى اللغة التى نتكلم بها والتى نزل بها القرآن . كذلك كانت للعرب الملاصقين لبعض الأمم الشمالية لغات تختلف عن الحميرية ، وعن العربية الحديثة لغة القرآن كما كشفت بعض النقوش والخطوط التى عثر عليها فى أجزاء متفرقة من شمال الجزيرة ، وتوفر على دراستها جماعة من علماء اللغة الغربيين .

واللغة التى نزل بها القرآن عاشت فى وسط الجزيرة فى الحجاز ونجد وبعض المناطق شرقى الجزيرة العربية ، ثم انتشرت بعد ذلك فى سائر أنحائها نتيجة انتقال القبائل وتفرقها من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب . . . وقد لعب الشعر

العربى الذى بدأ يظهر بصورة ناضجة قبل الإسلام بمائتى عام أو أكثر قليلا دورا هاما فى انتشار اللغة الفصحى ، وذلك لأسباب منها أن الشعر كان مظهر النشاط الفكرى والفنى للعرب الذين لم يكن لهم أى نشاط فنى آخر يجتمعون إليه ويقضون أوقاتهم ، كما كان لليونان مثلا مسارحهم وملاعبهم التى يزاولون فيها نشاطهم التمثيلى والرياضى ، وكما كان للرومان من مجتمعات وأندية سياسية . وقد قام الشعر بدور الصحافة هذه الأيام إلى جانب دور التمثيليات ، فقد كان العرب يجتمعون فى مواسم كبيرة فى « عكاظ » و « ذى المجاز » وغيرهما من أسواق العرب المعروفة ، يتاجرون ، ويعقدون المؤتمرات يفضون ما بينهم من نزاع وخلافات ، ويستمعون إلى الشعراء والخطباء وما جددوا من قصائد ذات شأن ، ويعقدون المسابقات فيقدمون من الشعراء من يرون فى شعره التقديم ويؤخرون من يستحق التأخير ، وكان العرب يولون نتائج تلك المسابقات أهمية بالغة ، ويحفلون لها أشد الاحتفال . وكانت سمعة القبيلة تتوقف إلى حد كبير على ما يقدمه شعراؤها فى المواسم من شعر يحوز القبول ، ويسمو على غيره من شعر القبائل . وهكذا كانت مواسم الشعر تنعقد مرات كل عام فى أماكن مختلفة من الجزيرة ويفد إليها العرب من

كل مكان من الشمال والجنوب ، من الشرق والغرب . وساعدت هذه الحركة ، التجمع فى مواسم متقاربة كل عام ، والتنقل من مكان لمكان ، وسماع الشعر إلى تقارب اللهجات واندماجها شيئا فشيئا ، حتى صارت لغة الشعر والخطابة لغة موحدة تقريبا بين جميع القبائل ، وصارت هى اللغة الفصحى التى روى لنا بها كل تراث الشعر العربى قبل الإسلام ، وإنا إذا استعرضنا شعر الفحول قبل الإسلام لا نكاد نجد اختلافا كبيرا بين شعر امرئ القيس الشاعر الكندى (الجنوبى القبيلة) الذى عاش قبل الإسلام بحوالى مائة وخمسين عاما وبين شعر الأعشى الذى أدرك الإسلام ، أو زهير وابنه كعب الذى أسلم وصار أحد شعراء النبي وكل منهما ينتمى إلى قبيلة شمالية الأصل ، فالأعشي قيسي وزهير ذبيانى .

إذًا فقد مهد الشعر العربى لظهور لغة موحدة أدبية راقية ، ينظم فيها العرب إنتاجهم شعرا ونثرا ، وكان لقريش أثر كبير فى هذه اللغة الجديدة ، ومعروف أن قريشا كانت تسكن مكة وتسيطر إلى حد كبير على طرق التجارة عبر الجزيرة ، كذلك كان نفوذها الأدبى واسعا بين القبائل ، وكانت مكة موطن قريش بمثابة العاصمة التجارية والسياسية للعرب قبل الإسلام ،

كما كانت أيضا العاصمة الدينية وكان اجتماع العرب كل عام فى موسم الحج لتبادل التجارة وقضاء الأعمال الهامة ، وزيارة الكعبة ثم الانصراف إلى عكاظ قرب مكة للاستماع إلى الشعر ، من أسباب سيادة لغة قريش ، فقد كان فى يدها الثروة ، والنفوذ ، والدين ، لهذا حرصت القبائل على تعلم لغتها ، وهكذا سادت لغة قريش ، وليس ذلك بغريب ، فنحن نلاحظ فى عصرنا الحديث كيف تسود لغة أمة من الأمم أمة أخرى أو مجموعة منها إذا كان لها من النفوذ والسلطان عليها ما يمكن لتلك السيادة ، فقد سادت اللغة التركية طوال الحكم العثمانى وأصبحت اللغة الرسمية لكثير من البلاد العربية ، كذلك سادت اللغة الإنجليزية فى كثير من البلدان التى احتلها الإنجليز ، وكان لهم من نشاطهم التجارى الواسع أثر كبير فى انتشار لغتهم .

وجاء القرآن بلغة هى ذروة ما وصلت إليه اللغة الأدبية ، وكان بلغة قريش ، ولكنه مع ذلك لم يخل من لغات بعض القبائل ، وهذا معنى أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، وليس المقصود بالعدد سبعة هنا التحديد ، بل القصد التعدد ، أى أن القرآن جمع فى لغته لغات القبائل مندمجة فى لغة قريش ، فاختار أفصحها وأقربها تلاؤما مع لغة قريش ، وقد وردت فى

القرآن ألفاظ ذات أصول نبطية ، أو فارسية أو يونانية ، وهذا له دلالتان ، إما أن لغة قريش نفسها قد تسرب إليها بعض تلك الألفاظ نتيجة تنقلهم بالتجارة فى بلاد فارس أو العراق والشام ومصر ، أو أن القبائل العربية المتاخمة لتلك البلاد قد دخلتها ألفاظ من لغاتها ، ومن ثم تسربت إلى لغة قريش ولغة القرآن . وقد نزل القرآن بلغة القوم وبلسانهم الذى يتكلمون .

وبعد نزول القرآن ، انتشرت اللغة التى نزل بها بين القبائل انتشارا واسعا ، لأنه الكتاب الذى حمل تشريع الدين الجديد وقوانينه ، ولأن سوره تتلى فى الصلوات ، وهو بعد هذا كله لغة الدولة الناشئة فى مكة والمدينة .

وبدأت حركة الفتوح وخرجت الجيوش من المدينة تحمل القرآن واللغة العربية إلى البلاد والأمصار فى الشرق والغرب ، وتغلغل العرب بعد الفتح فى تلك الأمصار ، وأقاموا ، واختلطوا بأهلها فانتشرت معهم اللغة بالاختلاط والإسلام ، فمن لاصق العرب من أبناء البلاد ، تعلم اللغة ، ومن أسلم وجب عليه تعلمها لقراءة القرآن والصلاة وأداء الفروض . إلا أن الذى أسرع بالتعريب ، ذلك الأمر الذى أصدره الخليفة عبد الملك ابن مروان بتعريب الدواوين فى جميع البلاد المفتوحة، وكانت

الدواوين تعمل بلغة تلك البلاد ، فى العراق وفارس بالفارسية ، وفى مصر بالقبطية واللاتينية . وهكذا اضطر الناس إلى تعلم اللغة العربية من أسلم منهم ومن لم يسلم وبذلك سادت العربية وصارت اللغة الرسمية واللغة الأدبية والعلمية .

ودخلت أمم كثيرة فى العروبة بتعلمها اللغة العربية ، وانصبت فيها ثقافات تلك الأمم فورثتها ، وأشركت العربية مع العرب الشعوب الأخرى فى اللسان والعواطف والآمال .

وفتح الإسلام للعرب نوافذ العقل وشجعهم على العلم ، وكانوا من قبل أمة أمية ، جاء فى الكتاب الكريم : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

ودعا الفكر العربى إلى ثورة ، وحفزه على التأمل والتبصر فى الخلق والكون ، وفى قدرة الله خالق الكائنات ، وفى لطائف صنعه ، وعجائب خلقه ، دعاه إلى التأمل فى السماوات والأرض وإلى خلقهما ، والبحث فى أوليات الخلق فى السماء والأرض كيف تم تكوينهما ، فى الشمس والقمر والنجوم ومسار كل منها فى أفلاكها ، والليل والنهار وتعاقبهما ، وحساب الشهور والسنين . ثم خلق الحيوان والنبات والماء وما يحويه من أحياء ،

والإنسان وصلته بتلك الأحياء جميعا وبالكون، وتميز الإنسان بالعقل واللسان، وما تؤول إليه الحياة الإنسانية بعد الموت، ثم ما تؤول إليه حياة الكون: أيظل هكذا سرمدا، أم له نهاية؟ وعلى أية صورة تكون تلك النهاية؟ لقد فتح القرآن الباب أمام هذا كله للبحث والتأمل.

وبدأ الفكر العربى بتفسير القرآن، فكان القرآن إذًا نبعا للثقافة العربية، منه انبثقت فروعها المختلفة، ومن التفسير خرج التشريع والفقه، وللتفسير اهتم العرب بدراسة النحو واللغة، وجمعوا الشعر ودونوه واستشهدوا بالشعر وبعلوم البيان على إعجاز القرآن، فنمت دراسات الأدب والنقد وتطورت.

ومن القرآن خرجت الفلسفة الإسلامية، ودارت مسائلها الكبرى حول حقائق الإسلام الكبرى، حول الله وصفاته، والخير والشر، والجبر والاختيار فى أعمال الإنسان، وغاية الحياة الإنسانية . . . وما إلى ذلك، ونشأت المدرسة الفكرية الأولى متمثلة فى جماعة من علماء المسلمين الذين أعملوا العقل فى مسائل الدين، ونعنى بهم جماعة «المعتزلة» الذين كان من بينهم، واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، والنظام، والجاحظ، والزمخشرى.

وخرجت لنا المدرسة الفكرية العربية الإسلامية كبار

الفلاسفة الذين ما زالت كتاباتهم عنوان التطور الكبير الذى انتهى إليه العقل العربى الإسلامى ، خرجت لنا الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد فى موازاة كبار الفلاسفة اليونانيين أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطاليس . وقد حفظت الفلسفة الإسلامية التراث الإنسانى فى فلسفة اليونان ، وحملته و زادت فيه طوال خمسة قرون ، و بلغته للفكر الأوربى عن طريق كتابات ابن سينا وابن رشد وغيرهما . وكان لفلاسفة العرب والإسلام أثر كبير فى النهضة الأوربية .

واهتم العرب والمسلمون أيضا بالنظر فى العلوم الطبيعية والرياضية ، وكان حافزهم كذلك تشجيع القرآن لهم فى البحث والتحقيق ، والكشف عن أسرار الحياة فى الأرض والحيوان والنبات . ودرس العرب والمسلمون كل ما استطاعوا التوصل إليه من دراسات قدماء اليونان والفرس والهنود ، وكانت لهم جهود موفقة اشترك فيها جماعة من العلماء الخالدين كالخوارزمى ، وابن الأنبارى ، وابن الهيثم ، والبيرونى ، وعمر الخيام ، وجابر ابن حيان .

وكان لهم فى الطب آثار مذكورة ، واشتهر عدد كبير من الأطباء وعلماء الأدوية ، نذكر منهم ابن البيطار ، ابن ميمون ،

وابن سينا بطبيعة الحال ، وداود الأنطاكى .

وتقدم العرب فى العلوم الإنسانية ، فكانت لهم الأعمال الكبيرة فى علوم التاريخ والبلدان والعمران . واشتهر من المؤرخين المسعودى ، والطبرى ، وابن الأثير ، وابن تغرى بردى ، وابن خلدون ، ومن علماء العمران والبلدان الإصطخرى ، وابن خرداذبه وابن مسكوية ، وياقوت الرومى ، والمقريزى ، ومن الرحالة المشهورين ابن جبير ، وابن بطوطة .

كذلك اتجه الفن العربى وجهة كان للإسلام إلى جانب الذوق العربى أثر واضح فيها ، فلم تهتم مدارس الفن العربى الإسلامى بالتشخيص أو الكائنات الحية فى أعمالها ، صرفت اهتمامها إلى العناصر النباتية ، والأشكال الهندسية . كذلك لم يهتم المصور الإسلامى العربى بالتعمق فى الصورة وإظهار الظلال والأبعاد المختلفة بل جل همه إظهار التفاصيل ، ولو كان ذلك على حساب نسب الأشياء ، فى الحجم أو البعد .

ولا شك أن نظرة التحرج التى كان ينظر بها المسلمون إلى رسم الأشخاص أو الحيوان ، أو نحتهما بسبب الوثنية وعقائدها واستكثارها من رسوم الأشخاص وتماثيلهم ، وخاصة فى الكعبة وأصنامها ، دعت إلى الابتعاد بقدر الإمكان عنها ، والإكثار

والتفنن فى الزخرفة الهندسية أو البناتية « الأرابسك » وهذا لا يعنى بطبيعة الحال أن العرب لم يكن لديهم رسم أشخاص ، بل إن ذلك وجد قليلا وفى أعمال متأثرة بالفن الفارسى أو البيزنطى وفى عصور متأخرة إلى حد ما .

ويظهر الذوق العربى فى الفن فى الميل إلى تكرار الوحدات ، وإبراز الخصائص الفرديـــة لتلك الوحدة المكررة ، والتماثل الشكلى ، واللونى ، ثم محاولة إرضاء الحس ، أكثر من إعطاء الفكرة ، أو إعطاء الموضوع الدرجة الأولى فى الأهمية . وينسحب هذا الطبع على الأدب ، فنجد الاعتماد على الوحدات المنفصلة واضحا فى الشعر وإعطاء الأهمية للبيت ، وللجرس ، وللفظ ، كذلك الحال فى النثر ، وميله أحيانا إلى السجع وترديد فقرات متساوية الطول ، أو متوازنة فى النفس والجرس بصورة تشبه الأبيات فى القصيدة ، والوحدة فى الشكل الزخرفى .

وهكذا نجد أن تراثنا اللغوى والثقافى ، قد نما وتطور خلال تاريخنا الطويل ، وأصبحت لنا شخصيتنا الثقافية المستقلة ، التى تتميز بخصائص تبرزها عن غيرها ، ولا نقول إن الصلة مقطوعة بين ثقافتنا العربية وغيرها من الثقافات الإنسانية قديمها وحديثها ، بل على العكس ، ربما كانت الثقافة العربية أكثر

الثقافات جمعا للثقافات ، وأقربها وشائج لكثير منها ، فطبيعة الأمة العربية ووجودها وسطا بين أمم الشرق والغرب مكنها من أن تجمع نفائس ما حوت كل منها ، جمعت ذخائر الهند والفرس وتراث اليونان والرومان ، ثم كان زمان الحضارة العربية وسطا بين الحضارات ، فقامت بدور الوسيط الذى انتقلت خلاله حضارة العالم القديم إلى العالم الحديث ، فأخذت أوربا فى عصر الحروب الصليبية وما بعدها ، عن طريق اتصالها بالعرب فى سوريا ومصر وإسبانيا وإيطاليا وتركيا ، كثيرا من الفكر العربى وما أبدعه فى ميادين الثقافة المختلفة .

واستمر الاتصال بين الثقافتين ، الغربية والعربية، إلى عصرنا الحديث ، فقد ازدهرت الثقافة العربية مرة أخرى عن طريق اتصال مصر والشام بأوربا ابتداء من القرن الثامن عشر ، وقد زاد هذا الاتصال واشتد فى القرن التاسع عشر ، إذ أقبل المستشرقون على الدراسات العربية يحيونها ، فيطبعون الكتب القديمة القيمة ، ويخصصون للدراسات العربية أقساما خاصة فى الجامعات الأوربية . وربما كان الدافع وراء هذه الحركة هو الاستعمار ، ولكن مهما كان ذلك الدافع فقد أدى اهتمام المستشرقين بالدراسات الشرقية والعربية خاصة خدمات جلى

لعصر ازدهارنا الثقافى الحديث ، وكان الدور التالى على أبناء الأمة العربية أنفسهم ، فقد قاموا بنقل كثير من التراث الغربى فى العلم والأدب ليطعموا به الثقافة العربية القديمة ، وسرت فعلا تلك الدماء الجديدة ، فكان لنا هذه الثقافة التى نعيش فى ظلها الآن والتى نحاول أن نسبق بها الزمن ، وأن نلحق ركب الحضارة الذى خلفنا وراءه سنين عديدة .

رابعا — الوطن الجغرافى :

ينبسط الوطن العربى فوق وحدة إقليمية مترابطة فيما بينها بروابط طبيعية ، وهو ينقسم فى صورته العامة إلى مجموعتين كبيرتين ، المجموعة الآسيوية ، وتشمل العراق وسوريا (الإقليم الشمالى للجمهورية العربية المتحدة) ، ولبنان ، والأردن ، وفلسطين ، والعربية السعودية ، واليمن ، وإمارات الخليج العربى ، وإمارات الجنوب العربى ، ثم المجموعة الأفريقية وتشمل : مصر (الإقليم الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة) ، السودان ، وليبيا ، وتونس والجزائر والمغرب . وتتصل كل مجموعة فيما بينها بروابط طبيعية هامة ، فيرتبط العراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين بما يعرف باسم « الهلال الخصيب »

كذلك ترتبط مجموعة « الهلال الخصيب » بالجزيرة العربية (اليمن والعربية السعودية وإمارات الخليج والجنوب) بالخليج العربى والبحر الأحمر ، وهما طريقان مائيان هامان منذ أقدم العصور .

كذلك ترتبط المجموعة الآسيوية كلها بالمجموعة الأفريقية كلها عن طريق شبه جزيرة سيناء ومصر ، ويرتبط الساحل الأفريقى الشمالى فى وحدة جغرافية متجانسة تضم دول ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وترتبط مصر بالسودان بالنيل النهر الخالد .

وللعالم العربى حدود مشتركة طبيعية تحيط به وتفصل بينه وبين البلاد الأخرى غير العربية ، ففى الشمال جبال طوروس ، وفى الشرق الخليج العربى والهضبة الإيرانية ، وفى الجنوب المحيط الهندى وبحر العرب وهضبة البحيرات والصحراء الكبرى فى أفريقيا ، وفى الغرب المحيط الأطلسى .

ولا يعد البحر الأحمر الذى يفصل بين القسمين الشرقى والغربى من الدول العربية فاصلا حقيقياً لأنه أشبه ببحيرة داخلية ، لم يعق تحرك الهجرات البشرية من الجزيرة إلى السودان ومصر ، وكانت أظهر تلك الهجرات أثرا هى الهجرات العربية قبل الإسلام وبعده .

ومن هذا العرض المبسط للوطن الجغرافى يتضح أن العالم

العربى يتكون من وحدات متماسكة مترابطة من الناحية الطبيعية والبشرية . ويكاد التقارب والتناسق المناخى بين أجزائه أن يكون تاما ، فالاختلاف بين درجات الحرارة ، وبين ظروف البيئة ليس بعيدا ولا واسعا ، فأكثره يعيش فى إقليم « بحر متوسط » فيما عدا السودان وجنوب الجزيرة تقع فى الأقاليم المدارية ، والتدرج مع هذا موجود بين الإقليمين

كذلك نجد أن أكثر بلاده تعيش على سهول نهرية كما هو الحال فى مصر والسودان والعراق ، أو سهول ساحلية كما هو الحال فى البلاد الواقعة على البحر المتوسط ، أو سهول صحراوية كما هو الحال فى الجزيرة العربية .

وقد مكنت هذه الطبيعة المتجانسة للقبائل العربية من الانتشار فى أنحاء العالم العربى والاستقرار واستطاعت أن تتكيف بسرعة مع ظروف البيئة فى كل إقليم نزحت إليه ، وبقيت لها مع ذلك خصائصها الأصيلة لم تتغير: اللغة ، والدين ، والدم العربى ، وبعض الطباع العربية التى أشرنا إليها .

واتصل تاريخ هذه المنطقة من آلاف السنين ، فصلة وادى الرافدين بالشام وبالجزيرة العربية قديم قدم بابل وآشور ، والهجرات مستمرة من قلب الجزيرة إلى العراق والشام والعكس ، كذلك صلة الجزيرة والعراق والشام بمصر قديمة قدم الفراعنة ،

خرجت جيوش الفراعنة من مصر وجابت هذه البلاد وعقدت الصلات ووثقتها ، كذلك وفدت جموع كثيفة من تلك البلاد إلى مصر ممثلة فى الهكسوس أحيانا ، وفى أمم أخرى سامية وعبرية بدوية ومتحضرة .

وربطت بينها الرسالات السماوية ، فبعث على أرضها الأنبياء والرسل ، ولذلك سميت أرض النبوات . وحفظت الكتب السماوية سيرة أولئك الأنبياء وطوافهم ببلاد العروبة ، فإبراهيم جاء من العراق إلى مكة فى قلب الجزيرة،إلى الشام فمصر، ثم رجع إلى بلاد فلسطين ، وكذلك أبناؤه وبقية أنبياء بنى إسرائيل ترددوا بين مصر وفلسطين ، يعقوب ويوسف وموسى .

وتبع هذه الروابط الجغرافية روابط اقتصادية ، فالطرق المائية والبرية مشتركة بين كثير من تلك الدول ، فالفرات يربط بين الشام والعراق ، كذلك يربط بينهما الطريق التجارى الشمالى القديم الذى يصل الشرق بالغرب ، والذى تقع الموصل على بابه الشرقى ،وحلب على بابه الغربى ، كذلك يربط الشام باليمن عبر الحجاز طريق التجارة المشهور الذى ينتهى فى الشمال بمدينة بترا « بطرة » القديمة، وفى وسطه مكة المدينة ، وفى جنوبه صنعاء .

ويربط مصر بالشام والحجاز الطريق التاريخى عبر سيناء

فى محازاة ساحل البحر مارا بالعريش ورفح ، ويربط بينهما طريق البحر الملاحى القديم الذى استخدمه المصريون القدماء والفينيقيون وسيروا تجارتهم وجيوشهم عبره . ويربط مصر بدول المغرب ذلك الطريق الساحلى الذى عبره الرومان وسلكه العرب فى فتوحهم إلى الأندلس .

ويربط مصر بالسودان الشريان المائى وطريق المواصلات العتيد « النيل » ، وسهولة الملاحة فيه يسرت الوحدة والتماسك بين أجزاء شمال مصر وجنوبها منذ أيام التاريخ الأولى ، كذلك ربطت بين سكان الوادى كله مصر والسودان .

وتعتبر الثغور فى بعض البلاد العربية المنفذ الطبيعى للبلاد الأخرى إلى العالم والنافذة التى تطل منها على الدنيا وتصرف تجارتها ، فثغور لبنان مثلا تعتبر المنفذ الطبيعى للعراق وسوريا والجزيرة العربية إلى البحر المتوسط وبقية العالم الغربى ، كذلك تلعب ثغور مصر على البحر المتوسط الدور نفسه بالنسبة للسودان .

خامسا ــ المصالح المشتركة :

هذه الشعوب التى تعيش فى وطن متقارب الصلات ، وتتفاهم بلغة واحدة ، وتعيش على ماض مجيد مشترك ، وتشترك

فى صفات إنسانية وعقائد واحدة ، وتجمعها كذلك مصالح مشتركة ، مصالح مادية ومعنوية وسياسية — هذه الشعوب العربية إما شعوب زراعية ، أو تجارية ، أو رعوية رحالة . وتختلف ثرواتها الطبيعية وتتنوع ، ولكنها مع ذلك تشترك فى بعض ما تملك من ثروة . فالإنتاج الزراعى يجمع المحصولات الرئيسية لطعام الناس كالقمح والشعير والأرز والفول والعدس ، كما تجمع كذلك محصولات إنتاجية اقتصادية تعتمد عليها بعض تلك الدول كمورد للثروة ، كالقطن طويل التيلة ومتوسطها وقصيرها ، والدول الثلاث بين المجموعة التى تنتج القطن وتعتمد عليه : مصر والسودان ويشتركان فى الطويل التيلة ، وسوريا (الإقليم الشمالى) ويشترك مع (الإقليم الجنوبى) فى متوسط التيلة وقصيرها .

وينتج الإقليم الجنوبى الأرز ويشترك مع العراق فيه، إلا أن النوعين مختلفان ، ولكل نوع سوقه العالمى ؛ وتعتبر الثروة الحيوانية فى السودان أهم مورد لاقتصادياته بعد القطن ، الذى وصل إلى الدرجة الأولى فى صادرات السودان فى السنوات الأخيرة . بينما نرى فى مصر نقصا فى الثروة الحيوانية ، عن كفايتها مما يضطرها إلى استيراد كثير من حيوان اللحوم (الماشية ، والضأن)

وتعتمد فى ذلك على الفائض من جاراتها العربيات .

كذلك الثروة المعدنية نجدها متنوعة إلى حد ما ، وإن اشتركت أحيانا فى بعض مواردها ، فالبترول هو العنصر الرئيسى فى الثروة العربية ، وتمتلك الجزء الأوفر منه المجموعة الآسيوية (العراق والكويت والسعودية وإمارات الخليج) ، وتملك مصر نصيبا لا بأس به ، ولا تزال البلدان الأخرى كالسودان والشمال الأفريقى تأمل فى نصيب يكشف عنه المستقبل .

وتمتلك بعض البلاد خامات أخرى ، كالحديد والنحاس والمنجنيز والفوسفات وغيرها . ولكنها لا تبلغ درجة اقتصادية ذات قيمة كبيرة ، باستثناء الإقليم الجنوبى حيث اكتشف الحديد ويجرى استثماره محليًّا .

وهكذا نجد أن هذه البلاد لا تزال تعتمد إلى حد كبير على الزراعة أو الرعى ، وتتخلف الصناعة فيها ، فيتخلف الدخل القومى ، ويهبط مستوى المعيشة إلى أدنى الدرجات مما يجعلها فى حاجة دائمة إلى الاعتماد على الدول المتقدمة اقتصاديًّا وصناعيًّا ، وتضطرها أحيانا إلى قبول المعونات تحت شروط فى مصلحة الدول المعينة ، أو تضطرها إلى الخضوع لإشراف مباشر أو غير مباشر من بعض الدول الرأسمالية .

وتستطيع هذه الدول أن تحقق تعاونا كبيرا فى الميدان الاقتصادى يؤدى إلى تنسيق موارد الإنتاج وزيادة الإنتاج برفع مستوى الاستغلال بتدبير الكفاية والخبرة الفنية ورأس المال ، ثم تنسيق التسويق فيما بينها حتى لا يحدث التضارب بينها فى الأسواق العالمية ، خاصة فى الخامات التى تحتكرها ، أو تملك نصيبا عالميا ممتازا فيه - كالقطن طويل التيلة والبترول .

ويمكن عن طريق هذا التعاون أن تستفيد البلاد المتخلفة فنيا بالأيدى العاملة والخبرة الفنية من البلاد التى تتوفر فيها هذه العناصر ، فلا تلجأ إلى الأجنبى الذى يملى شروطه ، ويوجه الاقتصاد العربى توجيها يرى فيه فائدته وربطه الدائم بعجلة بلاده . كذلك تستطيع البلاد العربية التى تملك فائضا فى رأس المال أن تستغل فائضها فى صورة قروض للبلاد التى تفتقر للمال وتملك الخامات . وهكذا يمكن أن ينتج التعاون المشترك فوائد مشتركة ويعود على المصالح العربية بأجل الفوائد .

ولا تقتصر المصالح المشتركة على الميدان الاقتصادى ، بل تمتد إلى غيره من الميادين ، إلى الميدان الثقافى مثلا ، حيث نجد بعض الدول لا تزال تحبو فى الناحية الثقافية ، بينما بلغ بعضها درجة ثقافية ممتازة ، والتعاون فى هذا الميدان واجب ،

لرفع الإمكانيات البشرية ، والنهوض بالمستوى الحضارى ، ونستطيع أن نقول إن التعاون الثقافى الآن يسير فى طريقه ، وإن لم يبلغ بعد الدرجة المرجوة ، لكنه مع الزمن ، واستمرار التقارب سيصل بإذن الله إلى ما نريد .

وينبغى فى مجال الحديث عن المصالح المشتركة أن نضع فى اعتبارنا عاملا هاما يؤثر فى اتجاهات الدول العربية وسياساتها فى ميادين الاقتصاد والسياسة والثقافة، وهذا العامل الهام هو أن كل هذه الأمم كانت إلى وقت قريب خاضعة لنفوذ الدول الكبرى : العثمانيين ، أو الإنجليز والفرنسيين . وحصل بعض هذه الدول على استقلاله عقب الحرب الكبرى الأولى ، بينما حصل بعضها الآخر على استقلاله بعد الحرب الثانية ، ولا يزال بعضها ، وهو قليل، تحت نفوذ مباشر أو غير مباشر للدول الاستعمارية ، إنجلترا وفرنسا وأمريكا .

ومشكلة الدول التى حصلت على استقلالها حديثا : الشك والريبة ، الشك فى كل عون خارجى ، أو كل تقارب ، إذ يفسر ذلك العون والتقارب تفسيرا يرجع إلى الأذهان الصور السوداء لعهود الخضوع والاستعمار ؛ ويحكم هذا الشك كثيرا من علاقات الدول العربية ، مع كل ما أشرنا إليه من عناصر

تدفع إلى هذا التقارب ، ومع أنه لا يتصور إطلاقا قيام التقارب المنشود على صورة من صور الخضوع أو الاستعمار ، فلم تبلغ دولة من الدول العربية درجة تستطيع أن تفرض نظاما استعماريا على الدول الأخرى ، فالاستعمار يحتاج إلى طاقات كبرى لم تتوفر إلا لبعض الدول الأوربية فى القرن التاسع عشر ، وقد بدأت موجة الانحسار لهذا الاستعمار ، ليقظة الشعوب المستعمرة ، ولن تعود من جديد تلك الموجة .

وكل ما يرجى للدول العربية لكى تصل إلى مستوى معقول ، ولكى تحافظ على كيانها فى ميدان الصراع الدولى أن تصل إلى درجة من الاتحاد أو الوحدة ، كما حدث بالنسبة لكثير من الدول الحديثة ، التى تكونت من قوميات كانت تتفرقها دويلات أو ولايات تحدها ، وتفصلها بعضها عن بعض حدود وفواصل مصطنعة . مثل إيطاليا ، وألمانيا ، والولايات المتحدة . وقد تغلبت تلك القوميات على ما يفصل بينها واستطاعت أن تكون دولا واتحادات قوية لعبت أدوارا هامة فى التاريخ . وتستطيع القومية العربية بوحى من وحدة مصالحها وثقافتها وتاريخها وموطنها ودمائها وتقاليدها أن تحقق مستقبلا مرموقا .

الفصل الثانى
بعث القومية العربية
ودور الأدب فيه

١

مقدمات البعث والأسباب الممهدة

نستطيع أن نرجع بحركة البعث العربى الحديثة إلى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر تريد أن تحتلها ، بحجة تخليصها من الفوضى التى كانت تعيث فيها تحت حكم المماليك والأتراك العثمانيين ، ولتقف حجر عثرة فى طريق الإمبراطورية البريطانية . وكانت هذه الحملة أول من نبه الشرق العربى وفتح عيونه على معالم النهضة الأوربية الحديثة بما حملته معها من آثار فكرية واتجاهات ثورية فى الحياة ، بعد الثورة الفرنسية . وحاول بونابرت أن يعطى شعب مصر نماذج من الحريات الدستورية والفردية التى حققتها الثورة الفرنسية ، بعد أن كان الشعب واقعا تحت الكبت المملوكى ، والظلم والاضطهاد العثمانى .

وخلفت الحملة آثارا علمية واجتماعية هائلة فى نفوس المصريين والعرب عامة ، وبدأت مصر تأخذ طريقها منذ ذلك التاريخ إلى التحرر ؛ والوصول إلى ما وصلت إليه من حضارة ، فأخذت تتطلع إليها لتقتبس منها عناصر التطور والحضارة .

واستطاع الجيش المصرى أن يحطم الفكرة السائدة بأن الأتراك العثمانيين خالدون ، لا تستطيع قوة أن تزحزهم عن البلاد العربية التى تنطوى تحت نفوذهم باعتبارها ولايات تابعة ليس لها كيان ذاتى . فاستطاعت مصر أن تنفصل ، وأن تبنى ذاتها ، وتكون شخصيتها المستقلة بعيدا عن دائرة الدولة العثمانية وكان لهذا أثر كبير فى تحرك بقية الولايات العربية وتنبهها إلى ضرورة اكتساب شخصيات ذاتية والانفصال عن العثمانيين ، وبدأت النظرة لمصر باعتبارها قائدة لواء التحرير العربى تأخذ طريقها إلى الولايات العربية منذ ذلك التاريخ .

ومما ساعد على زعزعة مكانة العثمانيين أيضا قيام الثورة الوهابية فى الحجاز ، وهى ثورة دينية ترمى إلى تحرير المعتقدات من مخلفات عصور الضعف الإسلامى والرجوع بالدين إلى الكتاب والسنة ، وهى فى الوقت نفسه ثورة على الحكم العثمانى بكل مفاسده .

وقد كانت حركة مصر فى عصر محمد على ثورة سياسية وفكرية وصناعية ، دعت الشعوب العربية الأخرى إلى الاقتداء بها ، وشجعت المفكرين ودعاة الإصلاح والزعماء على الدعوة للحصول على حريات أوسع ، وإصلاحات أساسية فى نظم الإدارة والحكم والتعليم، بالنسبة للشعوب العربية فى الدولة العثمانية . وبدأت توجيهات المفكرين الدينيين والسياسيين تدعو الناس إلى أن الخلافة العثمانية لا تمثل الخلافة الإسلامية الشرعية، وأن خلفاء بنى عثمان لا يمثلون إلا جانبا واحدا من الخلافة وهو الجانب الدينى باعتبارهم مسلمين ، والجانب الآخر الحتمى فى الخلافة وهو العروبة غير متوفر ، ولا يكفى الإسلام وحده ، لهذا كانت خلافتهم فى عرف أولئك المفكرين باطلة لأنها أخلت بشرط العروبة، ولأنها مع ذلك اغتصبت اغتصابا من آخر خلفاء العباسيين أو من يمثلهم شرعا . ولذلك دعوا إلى استعادة العرب للخلافة من الترك . ومن هنا نمت فكرة استعادة العرب لسلطانهم .

وقد انقسم العرب المسلمون داخل الدولة العثمانية إلى جماعات :

جماعة تتمنى قيام خلافة عربية تعيد الحق لأصحابه .

وجماعة تطالب الدولة العثمانية بإجراء إصلاحات جديدة فى البلاد العربية مع إعطائها شيئا من الاستقلال الذاتى أو الحكم المحلى فى نطاق الدولة العثمانية .

وجماعة تطالب بإصلاحات دستورية عامة ، وتشترك مع أحرار الأتراك فى الدعوة لتلك الإصلاحات وتشمل جميع بلدان الخلافة على حد سواء .

وجماعة تطالب بمراعاة حقوق العرب خاصة وإشراكهم فى مختلف شئون الدولة .

ذلك موقف العرب المسلمين ، أما العرب المسيحيون فقد اختلف موقفهم فى الفترة الأولى من الحركة العربية ، إذ كانوا يعتبرون الدولة العثمانية دولة إسلامية ، ولذلك فإنهم لم يشاركوا فى الحياة السياسية إلا مشاركة اضطرارية ، وكانت أهواء أكثرهم مع الغرب لأنهم يشتركون معهم فى الدين . وكذلك كان بعض هؤلاء يعتبر التاريخ العربى الإسلامى تاريخا إسلامياً وحسب ، وهو لذلك لا يعنيهم ، وأمجاده لا تدخل ماضيهم أو تتعلق بوجدانهم .

وساعد على هذا الموقف السلبي أن الدولة كانت لا تجند منهم فى الجيش، ولهذا كانوا لا يبالون لانتصاراتها أو انكساراتها، بل ربما تطرف بعضهم نتيجة الحركات العنصرية والاضطهاد الدينى الذى شنه العثمانيون فى سوريا إلى النقمة على الدولة وتمنى انكسارها على أيدى أعدائها ، والإشادة بانتصارات أولئك الأعداء ، كما نجد فى بعض قصائد إيليا أبو ماضى حيث يشيد بانتصار الروس على الأتراك ، فى شبابه وفى أدوار الاضطهاد العنصري ، الذى فر إيليا بسببه إلى مصر ثم إلى أمريكا .

ولكن هذه النزعات كانت شاذة وقليلة ، وكانت فى الوقت نفسه تعبيرا عن السخط على تصرفات الدولة العثمانية والفوضى التى آلت إليها . والدليل على أن تلك النزعات كانت عابرة غير أصيلة فى نفوس العرب المسيحيين أنهم تفانوا فى الدعوة لقيام الدولة العربية ، وأنهم أشادوا بدور العرب والإسلام فى الحضارة، بل إن إيليا أبو ماضى نفسه ، أشاد بالعروبة التى تظل برايتها المسلمين والمسيحيين جميعا وتؤلف بينهم فى إخاء تام ومحبة وعمل مشترك فى سبيل مجدها . فنراه يخاطب إخوانه فى قصيدة يدعوهم إلى نبذ الخلاف الدينى ، وإلى التآلف فى

الحياة ، فالأصل واحد هو العروبة والانتماء إلى شجرتها العتيدة :

أتباع أحمد والمسيح هوادة
ما العهد أن يتنكر الأخوان
الله رب الشرعتين وربكم
فإلى متى فى الدين تختصمان
مهما يكن من فارق فكلاكما
ينمى إلى قحطان أو غسان

وقد أشرت إلى أن هذا النزاع العنصرى الذى ظهر فى الأمة العربية فى مطلع حركة البعث العربى فى أواخر القرن التاسع عشر كان نتيجة سوء الحكم العثمانى ، وعدم التفهم الصحيح لروح الإسلام ، فالإسلام لم يترك المواطنين المسيحيين قط يعيشون على هامش الحياة ، بل دعاهم إلى المشاركة الإيجابية الفعالة، وقد قرر القرآن الكريم حق كل فئة فى الجزاء المنصف على السعى فى الدنيا بغض النظر عن الدين الذى يدينون به فى قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند

ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

والعمل الصالح هنا هو العمل لخير المجتمع والناس ، وما نفع الناس كان موضع رضى الخالق عز وجل . فالدعوة للعمل إذاً مقسمة للمواطنين جميعا ، وقد خص الله المسيحيين بالقربى من المسلمين بقوله :

(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) ، وقال : (وإذا سمعوا ما أنزل على الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) . ولم يؤثر أن أحدا من خلفاء المسلمين الأولين اضطهد النصارى أو نقص من حقوقهم ، بل على العكس سمح لهم بكل ما للمسلمين من حقوق ، فزاولوا نشاطهم وعبادتهم فى حرية تامة ومراعاة من الدولة. وقد تمسكت قبائل عربية قوية بدينها المسيحى ، مثل قبيلة تغلب ، فلم تضطهد ، ولم تعامل إلا معاملة غيرها من القبائل العربية فكان منها الزعماء والشعراء المقربون فى الدولة الأموية ، مثل الأخطل ، فهو خير مثال لمدى ما كانوا يتمتعون به من نفوذ ، إذ كان جليسا للخلفاء وشاعر الدولة المقدم على غيره ، ولسانها المنكل بأعدائها ، بل لقد سمح للأخطل أن يتعرض

للأنصار ولهم ما لهم من المكانة الدينية .

ولم تقف الطائفية حاجزا فى سبيل التئام عناصر القومية العربية ، بل سرعان ما أدرك مفكرو الإسلام والمسيحيين خطورة النعرة الطائفية على الدعوة القومية ، فأصبحنا نجد الدعوة عامة الى اعتبار التاريخ العربى تاريخا مشتركا للأمة العربية ، واعتبر محمد بن عبد الله صلوات الله عليه نبي الإسلام زعيما للعرب ، وصار المسيحيين متحمسين للعروبة تحمس المسلمين أنفسهم وأشد وظهر من بينهم شعراء كبار وكتاب أعلام وعلماء أفذاذ دافعوا عن العروبة عنصرا ولغة وقومية ، وظهرت فى أفق العروبة أسماء إيليا أبو ماضى ، ونجيب الحداد ، والأب أنستاس الكرملى ، وجورجى زيدان ، والأب لويس شيخو ، ولمعت تلك الأسماء وخلدت بما أدته للعروبة من خدمات فى ميادين الأدب واللغة والتاريخ .

لقد كانت الطائفية إذاً أولى الصعاب التى قامت فى طريق البعث العربى ، واستطاع المتنورون والمخلصون الواعون من مفكرى العرب التغلب على هذه الصعوبة بالدعوة إلى التآلف بين الطوائف فى ظل العروبة والقومية العربية . ولعب الأدب

الدور الأول فى هذه الدعوة للتغلب على النزعات الطائفية .

ويقول الشاعر سابا رزيق ، ناطقا بلسان أولئك الدعاة القوميين .

الدين للديان جـل جلاله
والدين أن تبنى الإخـاء بناته

ويقول الشاعر أحمد شوقى :

الدين للديان جـل جلاله
لو شاء ربك وحّـد الأقواما

وهكذا انطوت الدعوة إلى بناء القومية العربية على نبذ الخلافات الطائفية فى سبيل هذا الهدف القومى الذى يرنو إليه جميع العرب بقلوب خافقة وآمال عريضة وهو بناء الدولة العربية الكبرى .

واختلفت صور هذه الدولة وألوانها عند دعاة القومية ، فحاول بعض الكتاب أن بدعو إلى قيام دولتين إحداهما إسلامية ومقرها الحجاز ، والأخرى عربية عصرية تشمل العراق وسوريا ولبنان . ومن دعاة هذه الفكرة نجيب عازورى ، فقد ألف كتابا بعنوان « يقظة الأمة العربية فى آسيا » دعا فيه إلى

توحيد الكنائس الكاثوليكية فى العالم العربى تحت اسم « الكنيسة الكاثوليكية العربية » ، ودعا إلى انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية على أن تكون الحجاز مقرا للخلافة إسلامية عربية ، وأن تتكون من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين دولة عربية موحدة عصرية .

كذلك تولى خطباء العرب مسلمين ومسيحيين جلاء القومية العربية التى تتضامن فيها الطوائف تحت راية العروبة ، فقال الشيخ أحمد طبارة فى خطاب له بمؤتمر باريس العربى سنة ١٩١٣ :

« نحن نعنى بالعرب كل ناطق بالضاد ، لا فرق فى ذلك بين المسلم وغير المسلم » . وقال ندرة مطران فى المعنى نفسه : « إذا كانت النعرة الجنسية فضيلة فى النفس ، فلست أدرى أمة أشد تأثرا بعواملها من الأمة العربية . لما قدم أبو عبيدة ابن الجراح وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين إلى الشام وجدوا حارسا على أبوابها من الغسانيين ، وهم عرب نصارى يتقدمهم ملكهم المسيحى جبلة بن الأيهم إلا أن هؤلاء بدلا من قتال المسلمين والوقوف فى وجوههم عطفوا عليهم عطفة

الأخ ، فتركوا الجامعة الدينية والرابطة السياسية اللتين كانتا تقضيان عليهم بموالاة الروم ، وخطبوا ود وولاء الناطقين بلسانهم من بنى أمتهم العرب ، فمهدوا لهم السبل ، وفتحوا الطرق ، ومكنوهم كل التمكين من فتح البلاد . إن لعمرى فيما أبداه نصارى غسان من العصبية العربية فى هذا الشأن الخطير لأعظم شاعد على أن العرب متحمسون بالجنس قبل الدين ، وهى فضيلة الشعوب الحية ، فضيلة الشعوب التى لا تريد أن تموت » . وقال فى هذا الخطاب كذلك : « الدين لا ينفى المصلحة الشخصية ، ولا يقوم مقام العوائد والتقاليد واللسان والوطنية » .

العثمانية

وكانت العثمانية من أشد العقبات فى طريق البعث العربى ، والخلاف بينها وبين الطائفية ، أن العثمانية كانت تغذى الطائفية ، لأنها تقوم على أساس دينى ، ومنه تستمد سلطانها ، وليست على أساس قومى ، فكانت العثمانية من أشد أعداء القومية

العربية ، وكانت تملك فى يدها السلطان والقوة المادية التى تبطش بها بكل من يرفع رأسه بالدعوة القومية . وقد آمن بعض المجددين من مفكرى الإسلام بضرورة بقاء الخلافة العثمانية لأنها مظهر قوة الإسلام ولكنهم طالبوا بتجديدات دستورية تمكن الشعب الإسلامى من الاشتراك اشتراكا فعلياً فى الحكم ، وتحد من السلطات الاستبدادية لخلفاء العثمانيين .

وقد انقسمت الدعوة القومية نتيجة لنشاط هؤلاء المفكرين إلى محبذين لبقاء الخلافة العثمانية للإبقاء على كيان الدولة العربية الإسلامية إلى جانب المسلمين غير العرب ، فى ظل الخلافة ، ولقيت فكرة الإبقاء على الخلافة العثمانية تأييد كثير من العرب المسلمين . وقد ساعد هذه الدعوة العثمانية ما رآه المسلمون والعرب جميعا من تكالب الدول الغربية على الخلافة العثمانية للنيل منها ، وتقسيم البلدان التابعة لها بينها . وشعور العرب المسلمين بأن هذا التكالب إرهاص بحرب صليبية جديدة بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى . لهذا بدأ الشعور الإسلامى يتهيأ ويتجمع لذلك الخطر المتجمع فى الأفق ، وكانت الدعوة إلى الالتفاف حول الدولة العثمانية لإنقاذها وإنقاذ الشرق الإسلامى ، وكانت مصر من أشد أنصار هذه الدعوة ،

لإحساسها المبكر بوطأة العدوان الغربى فى صورة العدوان الإنجليزى ، والاحتلال الغادر بالجند والمال .

وظهرت مع ذلك اتجاهات مناصرة للعثمانية فى سوريا والعراق ، وكانت تفيض بها المقالات الطويلة ، والقصائد الطنانة التى ترددت على صفحات الجرائد والمجلات فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والعشر الأولى من القرن العشرين .

فى الإسكندرية كانت جريدة « العروة الوثقى » توالى سنة ١٨٨٤ م مجموعة من المقالات فى الحث على اتحاد كلمة المسلمين ، ومنها مقال عنوانه « الجنسية والديانة الإسلامية » جاء فيه :

« وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التى لا تميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الأمة ، وليس للوازع الجنسى أدنى امتياز عندهم إلا بكونه أحرصهم على الشريعة والدفاع عنها » .

وكذلك كتب عبد الرحمن الكواكبى كتابه المشهور « أم القرى » يدعو إلى مؤتمر إسلامى مكانه مكة ليتشاور فيه زعماء المسلمين ، ويرسمون خطط الإصلاح ، وذلك للنهضة

بالأمة الإسلامية لاستعادة مجدها القديم .

وقد عبر كثير من الشعراء عن ضرورة الرابطة الإسلامية ، وضرورة دعمها وتقويتها حتى تقوى معنوية الشعوب العربية ، ونذكر من هؤلاء الشاعر أمير ناصر الدين (لبنان سنة ١٩١٠) يقول :

نحن الألى بنت العروبة بيننا
ذاك البنــاء فأزهر الإســلام
نحن الألى بلسانهم قد أنزلت
آى الكتاب وذلك الإلهام

وفى مصر كما قلت كان الميل إلى الرابطة الإسلامية أشد من الميل للرابطة العربية ، كما اعترف بذلك كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » ، وقد أشار فيه إلى تحمس المصريين للرابطة الدينية الإسلامية وتقديمها على الوطنية الإقليمية . كذلك دعا أدباء مصر وشعراؤها وخطباؤها إلى الرابطة الإسلامية بحرارة موضحين مدى ما للعثمانيين من فضل فى حماية العرب والإسلام .

يقول حافظ إبراهيم :

ما للخــلافة إلا الترك تحرسها
الله يحرسهم فى آل ياسين

وللأعاريب حق لا نضيعه
وإن رمينا بتفريط وتهوين
بنو أبينا وإخوان الزمان على
ما كان من شدة يوما ومن لين

ولشوقى قصائد إسلامية مطولة يتغنى فيها بالإسلام ، وأمجاد الأمة الإسلامية ، وأبطالها ، وينظم السيرة النبوية والمدائح التى تعيد إلى الأذهان المدائح الرائعة لكبار الشعراء المسلمين . كذلك أشاد بخلفاء العثمانيين وقادة الترك المظفرين ، وقارن بينهم وبين زعماء الإسلام وقادته :

« يا خالد الترك جدد خالد العرب »

وقام جمال الدين الأفغانى بالدعوة لتجديد الدولة الإسلامية وظل يعمل فى خطبه وتعاليمه لتلاميذه بالأزهر على توحيد كلمة المسلمين وجمع شتات الدول الإسلامية ، والربط بينها فى دولة إسلامية قوية فى ظل خلافة عظمى .

وكان مصطفى كامل الزعيم الوطنى المصرى ، ورئيس الحزب الوطنى يردد فى خطبه دائما ضرورة الالتجاء إلى العثمانيين والالتفاف حول الخلافة للتحرر من ربقة الأطماع الاستعمارية الغربية . يقول فى إحدى خطبه : « حقا إن سياسة التقرب من

الدولة العلية لأحكم السياسات وأرشدها فضلا عن الأسباب العظيمة الداعية لهذا التقرب ، فإن العدو واحد ، ولا يليق بنا أن نكون فى فشل وشقاق فى وقت يعمل فيه أعداؤنا على تجزئة دولتنا ، ولا غرو إن كنا نتألم لتألم الدولة العلية ، فما نحن إلا أبناؤها المستظلون بظلها الوريف ، المجتمعون تحت رايتها » .

وكان من أنصار هذا الاتجاه أيضا من أرباب القلم سليم تقلا صاحب الأهرام ، وخليل مطران .

وعارض العثمانية كثير من أدباء العرب وشعرائهم خارج مصر ، وكانت معارضتها شديدة ، تفيض بالنقمة على الظلم العثمانى ، وعلى ما يعتمد عليه العثمانيون من تفتيت القوى العربية ، وتحطيم معنويات العرب بالطرق المختلفة ، بمحاربة اللغة رسمياً فى الدولة ، وعدم تعليمها فى المدارس باعتبارها لغة البلاد ، وعدم السماح باستعمالها فى دواوين الحكومة باعتبار اللغة الرسمية هى اللغة التركية ، فكان تحتيم تعليمها فى الولايات العربية أمراً لا مفر منه . ولم يستثن فى تعليم اللغة العربية واستعمالها فى الدواوين غير مصر ، ولهذا ظروفه الخاصة ، فالأزهر كان قائما على تعليم اللغة العربية ، كذلك حرص المصريون على أن تبقى العربية لغتهم القومية على الرغم من استعمال الطبقة الحاكمة للتركية للتفاهم بينهم .

ولم يسمح العثمانيون للنعرة العربية بالظهور ، ولم يسمحوا كذلك للولايات العربية أن تتمتع بنوع من المركزية ، بحيث يشترك العرب من أهل البلاد فى إدارة شئونها ، أو على الأقل المشاركة فى تقرير مصائرها .

ودفع كل هذا الكبت إلى التذمر فى صفوف العرب ، وإلى قيام الشعراء بالتنديد بالترك والحكم التركى ، ولسانهم يزبد ، وقلوبهم تفور من الغيظ . ونمثل هنا بقول الرصافى :

حتـام نبقى لعبـة لحكومة
دامت تجرعنا نقيع الحنظل
تنحـو بنا طرق البوار تحيفا
وتسومنا سوء العذاب الأهول
ما بالنا منها نخاف القتل إن
قمنا أما سنموت إن لم نقتـل

ودفعت هذه النقمة على الحكم العثمانى بعض الأدباء والمفكرين إلى إظهار مفاسده والتشهير به ، فكتب عبد الرحمن الكواكبي كتابه « طبائع الاستبداد » وهو دعوة جريئة إلى الحرية والتخلص من قيود الأتراك وحكمهم الظالم ، كذلك ألف كتابه « أم القرى » (صدر سنة ١٣١٦ هـ) يدعو فيه إلى

خلافة عربية إسلامية مركزها مكة ، ويتكلم فيه عن العوامل التى أدت إلى انحطاط المسلمين على شكل مؤتمر يجرى فيه مناقشات بين مفكرين منتسبين إلى مختلف البلاد الإسلامية . ونزعاته الدينية فى الكتاب ظاهرة ، إلا أنه يتطرق إلى قضايا الأمة العربية فى عصره ، لأنه يرى أن العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية . وينتقد العثمانيين انتقادا مرًّا ، ويصرح بأن حقوق العرب مهضومة فى دولتهم .

واستتبع الهجوم على العثمانية الهجوم على مؤيديها والداعين لها ، وتعرضت مصر لجانب من هجوم أدباء العروبة ، وكذلك تعرض الأدباء والشعراء المصريون ، يقول سليم سركيس فى جريدة البشير :

« لم أجد فى حياتى ، ولا قرأت فى مطالعاتى عن أمه تريد الانتقال من نور الاستقلال إلى ظلمات العبودية إلا هذا القسم من الأمة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثمانى » .

وخفت حركة الهجوم على العثمانيين بعد حركة الإصلاح التى أطاحت بعبد الحميد ، وأعلنت الدستور سنة ١٩٠٨ ، فبدأ الكتاب والشعراء يؤملون خيرا من وراء ذلك الدستور الجديد ، يظهر هذا واضحا من قول الزهاوى :

البرق أهدى لنا بشرى بها هدأت
أرواحنا بعد طول الخوف والرهب
بشرى كما تبتغى الآمال صادقة
أجلها الناس من قاص ومغترب
لقد أقر لعمرى أعينا سخنت
ما ناله فئة الأحـــرار من أرب

وهلل كتاب مصر وشعراؤها بهذه الحركة الجديدة فى الدولة العثمانية ، وأملوا من ورائها الإصلاح والرشاد وقوة الدولة وعزها. يقول شوقى :

بشرى البرية قاصيها ودانيها
حاط الخلافة بالدستور حاميها
أسدى إلينا أمير المؤمنين يداً
جلت كما جل فى الأملاك مسديها
وليس مستعظما فعل ولا كرم
من صاحب السكة الكبرى ومنشيها

فشوقى يطنطن للخليفة أمير المؤمنين ويرجع له الفضل فى منح هذا الدستور للناس ، ولا يقرر أن الدستور نتيجة لضغط الشعب عن طريق بعض دعاة الإصلاح . ويقول حافظ :

أثنى الحجيج عليك والحرمان
وأجـــل عيد جلوسك الثقلان
أرضيت ربك إذ جعلت طريقه
أمنـــاً وفزت بنعمة الرضوان
وحميت بالدستور حولك أمة
شتّى المذاهب جمة الأضغان

ولكن هذه الخطوة الإصلاحية لم يكتب لها التوفيق ، بل انتكست ، فلم يحصل العرب من إعلان الدستور على ما كانوا يطمعون فيه من اعتراف بحقوقهم ، وقد ساعد على هذه النكسة قيام الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ، وإعلان الأحكام العرفية فى سائر البلاد التابعة للخلافة العثمانية ، وتطور الأمور الى أسوأ بعد تعيين جمال باشا حاكما عاما وقائدا عسكرياً للقطاع السورى ، وكانت عصبيته التركية وكرهه للعرب دافعا له على ارتكاب كثير من أعمال العنف ضد العرب ، وخاصة الزعماء الذين كانوا يدعون إلى القومية العربية ، والمطالبة بحقوق العرب ، فقد علق منهم عددا كبيرا على أعواد المشانق فى دمشق بتهمة خيانة الدولة.

وقامت حالة توتر شديد بين العرب والدولة العثمانية انتهت بقيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين فى الحجاز .

ومهما اختلفت الأقوال فى هذه الثورة ، فهى على أية حال تعبير عملى عن مدى ما كان يشعر به العرب من ضيق فى ظل العثمانيين ، ومن رغبة شديدة فى بناء كيان عربى مستقل ، ودولة عربية توحد شملهم وترفع رايتهم . إلا أن الثورة العربية انطلاقة كبيرة ، أساء الغربيون استغلالها بتدخلها فى أحداثها وتآمرها مع بعض رجالها بحجة المعاونة فى التحرر من العثمانيين . وقد شوه هذه الثورة فى عيون كثير من العراقيين المخلصين قيامها فى الوقت الذى شنت فيه دول الغربية الحرب على الدولة العثمانية الإسلامية ، مما اعتبر خيانة وتآمراً ، وساعد على هذا الاعتقاد تدخل تلك الدول فى شئون العرب تدخلا سافرا انتهى بإعلان الانتداب أو الاحتلال.

القوميات الإقليمية

تنازعت النهضة العربية نوازع إقليمية محدودة ، وخاصة بعد انفصال الولايات العربية عن الخلافة العثمانية بعد الحرب ، وقد ذكى المستعمرون روح الإقليمية ، واعتمدوا على بعض العناصر الوطنية ، وعلى الطائفية فى التمكين لهذه الدعوة ، لكى يفصلوا أجزاء الوطن العربى بعضها عن بعض .

وكان هدف الثورة العربية التى قادها الشريف حسين وابنه فيصل الأول إقامة ملك عربى موحد لا إمارات منفصلة ، إلا أن الدول الاستعمارية إنجلترا وفرنسا رأتا تقسيم بلاد العرب إلى مناطق نفوذ ، فقامتا بتقسيم سوريا إلى أقسام : سوريا ولبنان وفلسطين وإمارة شرق الأردن، وأقامت ملوكا ورؤساء ووزراء ، وبذلك خفتت نداءات الوحدة ، وتحولت شيئا فشيئا إلى الدعوة إلى اتحاد عربى ، ثم إلى مجرد تحالف عربى ، تحالف دول ، بعد أن تعددت الدول العربية وأصبحت كل دولة تسعى للمحافظة على كيانها الجديد .

وأشد ما كان يهدد القومية العربية فى تلك النزعات الإقليمية هى الدعوة إلى بعث الماضى غير العربى لكل إقليم ، وإحياء النعرات القومية فى صورة بعث للتاريخ المجيد فى كل إقليم ، فكانت الدعوة للفينيقية فى لبنان ، والفرعونية فى مصر . كذلك دفعت خيبة الأمل بعد إخفاق الثورة العربية فى تحقيق أهدافها إلى أن تنطوى كل دولة عربية على نفسها وتحاول أن تبنى نفسها وشخصيتها من وحى بيئتها الخاصة ومصالحها الذاتية بغض النظر عن الحركة العربية .

وكان بعض دعاة لبنان من كتاب وأدباء جادين فى بعث الفينيقية ، والابتعاد عن العروبة والعرب ، وفصل لبنان عن

ظهيره العربى ، معتبرين أن الالتفات إلى هذا الظهير يؤخرهم دائما عن مسايرة ركب الحضارة ، وكان لبنان من أسبق الدول العربية وأسرعها اتصالا بحضارة الغرب . وتزعم جماعة من أدباء لبنان المهاجرين إلى أمريكا الشمالية حركة الدعوة الفينيقية ، أو بناء شخصية ذاتية ، والتحرر من قيود العروبة ، واتّهموا الثقافة العربية والدعوة القومية العربية اتّهامات شعوبية مما كانت تردده ألسنة الشعوبيين من الفرس فى مطلع القرن الثالث للهجرة .

كذلك حاول بعض أدباء المصريين أن يدافعوا عن الشخصية المصرية ، على أن تستمد مصر هذه الشخصية من تاريخها القديم ، تاريخ الفراعنة الذى استمر قرابة خمسة آلاف سنة ، وساعد على بث هذه الدعوة فى نفوس المصريين ، ظهور كثير من الكشوف الأثرية الفرعونية التى بهرت الناس ، واهتمام علماء الغرب بالدعاية لتلك الكشوف ، وإظهار مدى ما كان عليه المصريون من تقدم وازدهار .

وقام بعض المفكرين المصريين بتبنى هذه الفكرة، والدعوة لها فكتبوا عدة مقالات تدور حول هذا الموضوع وحاولوا أن يبرزوا شخصية مصر على أساس من تاريخها القديم ، وبينوا أنه ينبغى ألا تستمد مصر عناصر شخصيتها من العروبة

وحدها ، بل من ماضيها القديم إلى جانب العروبة فكلاهما متمم للآخر .

وترددت هذه الدعوة فى مصر فترات من الزمن ، كانت تشتد وتخبو ، وكانت كلما خبت وتغلبت عليها عناصر القومية العربية عادت فأيقظتها من غفلتها بعض الأحداث فى العالم العربى .

وساعد على انتشار الدعوة القومية بين المصريين شعراء العروبة وكتابها ، بينما شجع على الإقليمية المصرية رغبة مصر فى التمسك بالإسلام مظهرا لحياتها ، والارتباط بالخلافة ذلك الارتباط الدينى على أساس أن فى ذلك تقوية لها ضد المستعمرين الإنجليز ، فلما قامت الثورة العربية وخذلت الخلافة العثمانية ، قام دعاة مصريون بالدعوة إلى خلافة إسلامية موطنها مصر ، باعتبار أن ثورة الشريف حسين كانت من أهم أسباب هزيمة تركيا فى الشرق ، ومن ثم إعلان الحماية البريطانية الأمر الذى كرهه المصريون وناضلوا من أجل التخلص منه .

كذلك كان لأحداث فلسطين وإخفاق الدول العربية فى أن تقف موقفا موحدا قويًّا من قضيتها ، وانتهاء ذلك الموقف المائع بالخذلان المخزى فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٧ م ، كان لهذا أثره البالغ فى ارتفاع صوت الدعوة الإقليمية .

وظهرت الإقليمية فى غير مصر ولبنان من الدول العربية ، فظهر لها دعاة فى السودان بعد استقلاله ، ودعاة الإقليمية يجدون الأرض ممهدة فى الدول التى تحصل على استقلالها بعد احتلال طويل ، حيث يكون الناس حريصين أشد الحرص على ذلك الاستقلال شاكين أشد الشك فى كل ارتباط مع دولة خارجية مهما كانت . وقد ظهرت القومية الإفريقية فى السودان شبيهة بالقومية الفرعونية والفينيقية ودعا بعضهم إلى القومية السودانية المستقلة عن القومية العربية ، المنبعثة من التاريخ السودانى القديم أيضا ، ولكن هذه الدعوة الإقليمية أيضا لم تجد أرضا ثابتة للوقوف عليها مثلها مثل الدعوتين الأخريين فكل الوقائع والحقائق تنكرها . وإنما ساعد على ظهورها كثرة ما كتب الإنجليز عن السودان وتاريخه وديانته ، ويحاولون فيما كتبوا أن يبرزوا ذلك الطابع الإقليمى ، فكان طبيعيًّا أن يتأثر بعض الأدباء والمثقفين بتلك الآراء وينادى بها . إلا أن السودان مع ذلك لم يتخل عن ركب العروبة ، وإن منعته ظروف الاحتلال الإنجليزى من الاتصال مبكرا بالحركة العربية ، ويحاول الآن اللحاق بالركب العربى والعمل الجاهد على التمكين للعروبة ، بانضمامه للجامعة العربية ، وتبنيه للقضايا العربية وحرصه على وحدة الصف العربى ، وإظهار هذا الاهتمام فى مناسبات كثيرة .

٢
الدعوة للقومية العربية

وعلى الرغم من تلك العقبات التى وقفت فى طريق القومية ، وفى نضالها فى سبيل التحرر وإثبات كيانها ، نجدها تستمر فى طريقها المنشود ، فلا تنكث ، وإن كانت تخبو جذوتها وتضعف أحيانا تحت ثقل الأحداث ، إلا أنها لا تنطفئ أبدا ، بل لاتلبث أن تعود متأججة كما كانت ، بل أشد تأججا وازدهارا .

وإن الذى حفظ للقومية العربية تلك الحيوية إنما هو ما انطوت عليه من عناصر أصيلة حية واقعية متطورة ، وليست مفتعلة مصطنعة . هذه العناصر الأصيلة التى تستمد قوتها من واقع الكيان العربى والتى أشرنا إليها فى بدء كلامنا ، تغلبت بسهولة على العقبات التى اعترضتها . وقد أبلى كتاب العرب وشعراؤهم بلاء حسنا ، وقاموا بجهود ضخمة متواصلة لإقرار عناصر القومية وتثبيتها فى نفوس العرب ، وتفتيح عيونهم عليها ، وتنبيه أذهانهم إلى ضرورة تحقيقها وتحقيق أهدافها ، ليصبح للعرب أمتهم ذات الكيان الضخم ، ليطمئنوا على مستقبلهم ، وليحصلوا من الكسب والازدهار مالا تستطيعه دولهم الصغيرة المتفرقة .

وأهم ما اعتمد عليه الأدباء دعاة القومية من عناصرها التاريخ المشترك الحافل بالمفاخر والأمجاد والبطولات التى تعتبر مآثر كبرى لأمة العرب لا يمحوها الزمن ، وهى ألصق وأقرب من المآثر الأخرى الإقليمية . واعتمد الأدباء على التاريخ لبث الثقة فى النفوس ، ولتحريكها بعد فترات الجمود الطويلة واستمدوا من وقائعه قوى لدفع الأمة العربية إلى استعادة المجد الغابر والحضارة الماضية .

وهكذا استغل الكتاب والشعراء ذلك التاريخ استغلالا كبيرا قويًّا لنشر الوعى العربى ، وكان الشعر وسيلة فعالة لنظم مفاخر التاريخ ، نظرا لما للشعر من أثر فى نفوس العرب من قديم الزمن ، ولما له من الخصائص الفنية التى يستطيع عن طريقها التأثير القوى فى النفوس ، ومخاطبة المشاعر دون حجاب . وتناول الشعر ضمن ما تناول الحديث عن زعماء العروبة وباعثيها ، وكانت شخصية النبى محمد صلوات الله وسلامه عليه نبى العروبة وباعث نهضتها من أول ما أولاه الشعراء اهتمامهم مسلمين ومسيحيين فقد نظم الشاعر أحمد شوقى فيه القصائد الطويلة التى تعتبر دررا رائعة يتغنى فيها بمآثر النبى وبأعماله الخالدة ومبادئه ، وجوانب شخصيته ، وماله من الأيدى على الأمة

العربية وقيادتها إلى طريق العزة والكرامة . ومن أكثر هذه القصائد شيوعا نهج البردة :

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

والهمزية النبوية :

ولد الهـــدى فالكائنات ضياء
وفم الزمـــان تبسم وثنـــاء

والبائية :

سلو قلبى غـــداة سلا وتـــابـــا
لعل على الجمـــال له عتابا

كذلك فعل شعراء العرب الآخرون ، ونمثل لهم بالشاعر الفلسطينى إبراهيم طوقان . يقول فى قصيدة له مشيدا بالنبى والقرآن ، مستمدا من ذلك الوحى لاستعادة مجد العروبة ورفع الظلم عن أمة العرب :

نزل الكتاب على النبى محمد
ما يصنـــع الشعراء والخطباء

سحر القلوب فراح يقذفها على
نار الجهاد أولئك البسلاء
هيهات ما نكصوا على أعقابهم
حتى انجلت عنهم وهم شهداء
حرية آى الكتاب وسؤدد
وعزيمة وكرامة وإباء
ناديت قومى لا أخصص مسلما
أبناء يعرب فى الخطوب سواء
إن الكتاب شريعة استقلالكم
فتدبروه فأنتم الخلفاء

ونظم الشعراء كذلك فى أبطال العروبة والإسلام ، واستلهموا بطولاتهم وأمجادهم ليستنهضوا العرب فى كل مكان ، فنظم الشعراء فى بطولات أبى بكر وعمر وخالد بن الوليد ، وغيرهم من القواد والخلفاء الذين كان لهم شأن عظيم ودور كبير فى أمجاد العروبة وانتصاراتها فى الماضى . نظم حافظ إبراهيم عمريته الطويلة فى نحو مائة وتسعين بيتا ، عرض فيها مناقب عمر بن الخطاب وديمقراطيته ، وحرصه على رفاهية الرعية من المسلمين ، وبدأها بقوله :

حسب القوافى وحسبى حين ألقيها

أنى إلى ساحة الفاروق أهديها

. . . .

هذى مناقبه فى عهد دولته

للشاهدين وللأعقاب أرويها

لعل فى أمة الإسلام نابتة

تجلو لحاضرها مرآة ماضيها

حتى ترى بعض ما شادت أوائلها

من الصروح وما عاناه بانيها

وحسبها أن ترى ما كان من عمر

حتى ينبه منها عين غافيها

وعلى غرارها علوية عبد المطلب فى على بن أبى طالب ، وبكرية عبد الحليم المصرى فى أبى بكر ، وخالدية عمر أبو ريشة فى خالد بن الوليد ، وكذلك موشحة صقر قريش عبد الرحمن الداخل .

واهتم الكتاب اهتمام الشعراء بالشخصيات العربية الإسلامية يجلون تاريخها ويبصرون الناس بمآثرها وأعمالها ، فظهرت تراجم وقصص ودراسات عن تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم مثل

كتاب الدكتور هيكل « حياة محمد » ، وكتاب توفيق الحكيم « محمد » على صورة مسرحية ، ودراسة طه حسين على هامش السيرة عن المرحلة الأولى للدعوة الإسلامية ، ومحمد المثل الكامل ، وعبقرية محمد للعقاد ، وغيره من الكتب الكثيرة التى ظهرت فى النصف الأول من هذا القرن .

كذلك ظهرت كتب فى سيرة الخلفاء ، ومنها كتب العبقريات للعقاد ، وكتب الدكتور هيكل عن أبى بكر الصديق وعمر الفاروق ، وطه حسين عن الفتنة الكبرى « عثمان » ، و « على وبنوه » ، وكذلك كتب محمد فريد أبو حديد « سيرة صلاح الدين » .

وظهرت قصص ومسرحيات تتناول حياة أبطال العرب والمسلمين ، ومنها قصص جورجى زيدان : فتاة غسان ، وعذراء قريش ، وعبد الرحمن الناصر ، وصلاح الدين ، وكتب كثير من الأدباء فى سير عظماء الإسلام مثل كتاب « أشهر مشاهير الإسلام » ، ومسرحيات عزيز أباظة الشعرية فى فترات من تاريخ العرب الزاهر فى بغداد والأندلس . وبعض مسرحيات باكثير ، ومحمود تيمور حول شخصيات إسلامية مشهورة ، مثل « وا إسلاماه » لباكثير ، « وابن جلا » لتيمور .

وتعرض الشعراء للبطولات العربية بصفة عامة ، ولما فى تاريخ العرب والإسلام من شواهد عديدة على أصالة الأمة العربية ومتانة عنصرها . يقول الشيخ إبراهيم اليازجى :

سلام أيها العرب الكرام
وجاد ربوع قطركم الغمام
لقد ذكر الزمان لكم عهودا
مضت قدما فلم يضع الذمام

ويقول :

وما العرب الكرام سوى نصال
لها فى أجفن العليا مقام
لعمرى نحن مصدر كل فضل
وعن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قديم
وإن جحدت مآثرنا اللئام

ويقول فى قصيدة أخرى ، يذكر العرب بفتوحهم التى امتدت من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب :

ألستم من سطوا فى الأرض واقتحموا
شرقا وغربا وعزُّوا أينما ذهبوا

ويقول مصطفى صادق الرافعى :

شنف بذكر مفـــاخر العربان
سمعى وأنعش خاطرى وجنانى
فحديث آباء الفتى ينشى بـــه
عزما لنفخ الروح فى الجثمان
ولرب آثـــار لهم تذكارهـــا
يهب الضمائر قوة الإيمـــان
تتفاخر الأجيال فى أخبـــارهم
والشمس لا تحتـــاج للبرهـــان
أهل الشجاعة والبراعـــة والوفا
والصـــدق والإيثـــار والإحسان
جعلوا الممالك تحت ظل سيوفهم
متظللين ذوائب المـــران

ويقول إلياس فياض فى قصيدة عنوانها « وفاء » :

تلك آباؤنا وذاك تـــراث الـ
ـمجد باق فيهم إلى الأبنـــاء
مشرف فى سماحـــة وذكاء
فى وقار وقـــدرة فى وفـــاء

ويقول الشاعر السودانى عبد الله عبد الرحمن :

تنكر من وادى العــروبة مورد

فلا الزهر مفترّ ، ولا الغصن أملد

ولا ماؤه ينساب بين رياضــه

ولا الطير فى أفنــانهن تغــرد

وقفت على الوادى مليــاً فهزنى

وبدد شملى شمله المتبــدد

مضى متنبيــه وحسان بعــده

وغاب معــريه الحكيم المجــدد

أسائله أين الذين تحــدثوا

إليك وفى هذا المكان ترددوا

على ظله الصافى جلوسا وكلما

أهاب بهم داعى السماحة أنشدوا

ويقول الشاعر السودانى الشيخ عبد الله البنا أيضا :

وارمق بطرفك من بغداد داثرها

واندب بها كل ماضى العزم ميمون

سل دار عاتكة ما شأن عاتكة

فيها وعن سائل فيها لهــارون

وسل زبيدة عن قصر تبــوأه
بعد الأمين حسام الشهم مأمون
سلها عن الجيش جيش الله أين مضى
وكيف جرد من ماض ومسنون
وقبلها ابلك دمشقا إنهـــا فجعت
بسادة غزوا الدنيا أساطين
وسل معاوية عن شاتميه فكم
عفا وأعطى برأى منه مرصون
وعهد طيبة فاذكر فيه كل فتى
جم الأيادى من الشم العرانين
واذكر ليالى للفاروق أرقه
فيها التقى وحنـــان للمساكين

* * *

وشارك النثر الشعر فى التذكير بذلك المجد القديم واستنهاض الهمم ، لاستعادة ما ضاع منه ، ودبجت يراع الكتاب مقالات رائعة فى استنهاض الهمم ، نذكر مثالا لها ما كتبه عبد الرحمن الكواكبي فى « أم القرى » :

« إن الدين الإسلامى قد نشأ فى العرب وبلغتهم ، فهم أهله وحملته وحافظوه » ، ثم يذكر أن العرب هم أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوى الحقوق ، وتقارب المراتب فى الهيئة الاجتماعية وهم أعرق الأمم فى أصول الشورى ، وأهداها لأصول المعيشة الاشتراكية ، وأحرصها على احترام العهود عزة ، واحترام الذمة الإنسانية ، واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف مروءة .

ويقول أديب إسحاق فى الموضوع نفسه « من الدرر » :

« شعلة العرب التى سرت من الحجاز ، فأنارت الشام والعراق ومصر والمغرب والهند ، واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نورا » ويشيد بفتوح العرب الكبرى ، ويوازن بينهم قديما ، وبين أحفادهم الآن داعيا إلى استعادة المجد القديم .

وصحبت هذه الدعوات الحارة للتأمل فى التاريخ العربى المجيد اتجاهات إلى الدعوة لضم الصف العربى والتآلف بين أبناء الأمة العربية فى الأقطار المختلفة ، فإن قوه العرب فى الماضى كانت نتيجة انضمام أجزاء العالم الإسلامى العربى تحت راية واحدة ، وإن ضعف العرب بدأ منذ أخذت الفرقة تدب فى أوصالهم ، والانقسام يقطع أوصال دولتهم الكبرى .

وظهرت مجموعة من كتب التاريخ العربى الإسلامى ، بعضها يتولى عرض جوانب خاصة منه ، وبعضها الآخر يتناول التاريخ العربى كله ، ومن أشهر ما ألف فى هذا الموضوع كتاب الدكتور حسن إبراهيم حسن « تاريخ الإسلام السياسى »، وكتاب « محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية » للشيخ محمد الخضرى من قبله ، وكتاب الدكتور جواد على « تاريخ العرب قبل الإسلام » ، و « تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان »، و« بناة النهضة » له أيضا، و« أشهر مشاهير الإسلام » لرفيق العظم وغيرها ، كما تم نشر كثير من كتب التاريخ القديمة مثل تاريخ الطبرى ، والمسعودى ، وابن الأثير ، وفتوح البلدان ، وتاريخ ابن خلدون . . . إلخ .

٣
دعوة الأدب إلى التحرر ومناهضة القوى الخارجية

واتخذ الأدب من التاريخ كذلك مادة للتحريض ، وإيقاظ العرب من رقدتهم ، ولما أخذت أمتهم تفيق وترفع عنها غبار الهون ، كانت لها بالمرصاد قوى ترقب حركاتها ، وتنتهز

الفرص لتخمد نبضاتها وكان أول تلك القوى العثمانية كما أشرنا ، وقد صارع الأدب العثمانية صراعا مريرا ، وتمثل بعض الشعراء طغيان الترك كطغيان المغول وتخريبهم الحضارة العربية كما خرب أسلافهم مجد العباسيين . يقول الشيخ فؤاد الخطيب ناعتا إياهم بآل جنكيز خان :

يا آل جنكيز إن تثقل مظالمكم
على الشعوب فقد كانت لهم نعما
فالظلم أيقظ منهم كل ذى سنة
ما كان ينهض لولا أنه ظلما

ويقول الشاعر السورى خير الدين الزركلى :

عتى أحفـــاد جنكيز فساقوا
سلائل يعرب سوق العبيـــد

وبعث إبراهيم اليازجى صيحة مدوية فى قصيدة نظمها سنة ١٨٩٦ م يخاطب العرب ويبصرهم بماضيهم ، ويدعوهم إلى التأمل فى حاضرهم الأليم حيث يسومهم الترك ألوان المذلة والهون :

كم تظلمون ولستم تشتكون وكم
تستغضبون فلا يبـــدو لكم غضب

لأنتم الفئة الكبرى وكم فئة
قليلة تم إذ ضمت لها الغلب

ويقول فيها :

بالله يا قومنا هبوا لشأنكم
فكم تناديكم الأسفار والخطب
ألستم من سطوا فى الأرض واقتحموا
شرقا وغربا وعزوا أينما ذهبوا
فما لكم ويلكم أصبحتم هملا
ووجه عزكم بالهون منتقب
لا دولة لكم يشتد أزركم
بها ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم فى عيون الترك نازلة
وحقكم بين أيدى الترك مغتصب

وتكاد هذه الأبيات أن تصرخ فى العرب بضرورة القيام والثورة لتغيير الأوضاع التى هم عليها فقد بلغت الروح الحلقوم، ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، فآن أن تفيض بالغضب النفوس، وأن يهب العرب ، ويثبوا الوثبة الكبرى ، ليديلوا من دولة البغى

وليرسوا قواعد دولتهم . وها هوذا معروف الرصافى الشاعر العراقى ، يدعو قومه العرب فى كل مكان إلى الانتفاض ، والخروج على الأتراك ، وإلقاء رداء المذلة جانبا :

حتـــام نبقى لعبـــة لحكومة
دامت تجرعنا نقيع الحنظل
تنحو بنـــا طرق البـــوار تحيفـــا
وتسومنا ســـوء العذاب الأهول
ما بالنا منها نخاف القتل .إن
قمنـــا أما سنموت إن لم نقتـــل

وكانت نتيجة هذا التحريض المستمر من الأدباء شعرائهم والكتاب قيام الثورة العربية الكبرى وانطواء الشعوب العربية تحت لوائها تنشد التحرر وبناء دولة جديدة . وأعقب الثورة ما أعقبها من خذلان وضياع لآمال العرب بسبب تدخل قوى جديدة غير العثمانيين ، هى قوى الاستعمار الغربى ممثلة فى دولتى إنجلترا وفرنسا ، وبدأ تدخل هاتين الدولتين تدخلا سافرا فى البلاد العربية بعد الحرب الأولى ثم انتهى بالانتداب فكان عنوان الغدر والتآمر على مصير العرب . وغضب العرب لهذا

الغدر ، فكانت ثورات وثورات ، لأنهم لم ينادوا بالتحرر من الأتراك لكى يخضعوا للإنجليز والفرنسيين .

وشهدت سوريا أحداثا دامية ، وتحملت من الاستعمار ضربات باطشة عنيفة حاقدة ، لأنها قلب العروبة النابض ، ومبعث الحركة العربية الفكرية والثورية ، وصمدت سوريا ولم تتخاذل ، وسقط شهداء وشهداء رووا بدمائهم شجرة الحرية التى تمتع العرب من بعد بظلالها وسيتمتعون بمرور الزمن كلما تمكنت تلك الشجرة ، ومدت بفروعها على أقطار العرب جميعا . وكانت وقعة ميسلون وقعة لا تنسى فى تاريخ البعث العربى ، وكان استشهاد يوسف العظمة وزملائه مثلا خالدا للفداء . ويخلد لنا الشاعر خليل مردم ذلك الحدث الجلل فى قصيدة عصماء بعنوان « ذكرى يوسف » يقول فيها :

مصيبــة ميسلون وإن أمضّت
أخف وقيعة مما تلاهــا

فـــا من بقعـــة بدمشق إلا
تمثـــل ميسلون ومـــا دهـــاها

فسل عما تصبب من دماء
تخـــبرك الحقيقـــة غوطتاها

ولم أر جنـــة أمسى بنـــوها
وقـــود النـــار فائرة ســـواها

وشهد الأدب العربى شعراً ثورياً من الطراز الأول تفور به قرائح الشعراء ، ويتلون بألوان فنية مختلفة ، فمنه المتأجج تأجج النار ،ومنه النفاذ نفاذ النبال ،ومنه الساخط المتبرم، ومنه المتوعد المتربص .

ولشوقى قصيدة رائعة ، تعد من أجمل قصائد الثورة السورية ، فيها الألم المرير ، والدعوة الجادة إلى اقتحام أبواب الحرية بعزم وتصميم ، يقول فى مطلعها :

ســـلام من صبا بردي أرق
ودمـــع لا يكفكف يا دمشق
ومعـــذرة اليراعـــة والقـــوافى
جـــلال الرزء عن وصف يدق

يقول فيها :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يـــدق

ويقول الغلايينى فى شعر ثورى يدعو العرب إلى طرد

المستعمر الغاصب فى كل أرض عربية حتى يتم تحرير الوطن العربى جميعه :

هبـــوا فأمتكم أمست على خطر
جار الأعادى عليها جور منتقم
حتى تسيل ربوع الشام مفعمة
دما يسيل الردى فى سيله العرم
وذمـــة العرب والأيام شـــاهدة
لنضرمن الوغى فى السهل والظلم
حتى يخلوا بلاد العـــرب أجمعها
من ساحل الروم حتى ساحل العجم

ويقول الشاعر عمر أبو ريشة ، وقد امتلأ سخطا على أولئك الغربيين الذين كانوا فى القديم سبايا للعرب ينزلون منزل الذلة والهوان ، وقد دارت الأيام فأصبحوا الآن يشهرون على العرب سيوف الحرب ، ويحاولون استعبادهم :

ما لأبنـــاء السبايا ركبـــوا للأمانى البيض أشهى مركب
ومتى هـــزوا علينـــا راية ما انطوت بين رخيص السلب

يا روابى القدس يا مجلى السنا
يا رؤى عيسى على جفن النبي
دون علياتك فى الرحب المـــدى
صهلة الخيـــل ووهج القضب
لمت الآمــــال منـــا شملنا
ونمت ما بيننـــا من نسب

ويصف خليل مردم تلاعب المستعمر ، وخيانته العهود وحنثه فى الوعود فيقول :

أتى ضيفا فأصبح رب بيت
يحـــكم بالقطين وبالعيـــال
وسمى نفسه قسرا وصيـــا
على مفوضا فى كل حـــال
ومنتـــدبا على برغم أنفى
ولست بقاصر يـــوم النزال

ويقول فيها :

دعانى للتفاهم بعـــد أخـــذ
ورد واختـــلاف وافتعـــال

وعاهـــدنى وسمـــانى حليفـــا
فلم أشفق عليـــه ولم أغـــال
لقينـــا فى سبيل العهـــد ما لم
نلاق من انتـــداب واحتلال
فكم من حـــاذق فطن تغـــالى
وداهيـــة تظاهر بالخبـــال
وكم من ضابط أو مستشار
تحـــذلق بالتحيز والـــدلال

كذلك دوى النثر بصرخات ثورية ، ومن أولى هذه الصرخات ، صرخات الكواكبي فى « طبائع الاستبداد » .

« يا قوم سامحكم الله لا تظلموا الأقدار وخافوا غيرة المنتقم الجبار ، ألم يخلقكم أحرارا لا يتقيلكم غير النور والنسيم . . . يا قوم كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعا لله ، وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين مغموسة بدم الإخوان ، وأجدادكم ينامون الآن فى قبورهم مستوين أعزاء ، وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء ، البهائم تود لو تنتصب قامتها ، وأنتم تطلبون الانخفاض » .

الفصل الثالث

الأدب يخوض معارك العروبة ويسجل انتصاراتها

١

فى معركة فلسطين

كانت كارثة فلسطين وضياعها من الوطن العربى إلى شراذم الصهيونية سببا فى انتباه العرب إلى ضرر الفرقة ، وما تجلبه عليهم من ضياع ، فقد سببت ضياع فلسطين وتشريد سكانها من العرب على تلك الصورة المشينة التى قاساها هذا الجيل من أبناء العروبة .

وكانت الكارثة سببا فى التجمع والانطلاق ، والدعوة إلى تقوية القومية العربية ، فهى الأمل المنشود والمنقذ المأمول الذى يستطيع أن يقف أمام أطماع الطامعين من الصهيونيين والاستعماريين ، وقد أسهب الأدباء فى شرح مأساة فلسطين ، والضعف الذى واجهتها به الدول العربية . وكانت هذه المأساة مادة لأدب حى ثائر مرير . ولعل من أبرز من أولى فلسطين

من نفسه أدباء فلسطين نفسها ، وشعراء الأردن لأنها جزء منها ونذكر على رأسهم الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان ، والشاعرة فدوى طوقان ، والشاعر هارون هاشم رشيد ، وغير هؤلاء ممن حفلت مجلات العروبة بقصائدهم الفياضة بالأسى ، الحافلة بالآمال في العودة . . . وشاركهم شعراء العروبة في سوريا والعراق ومصر والمغرب والحجاز .

وتناول شعر فلسطين أطوار النكبة منذ ظهورها في أفق السياسة العربية بعد وعد بلفور المشئوم ، ثم ابتياع اليهود أرض العرب لقاء دراهم معدودات ، أو لقاء متاع عرض زائل ، وقد لعبت حسان صهيون في هذا الشأن أدوارا ، ولعب العملاء الخونة المرتشون ، ولعبت الفرقة والضعف والأنانية ، ونبهنا الأدب إلى هذا كله ، فترى الشاعر إبراهيم طوقان يذكر هذه المساخر في أسى ولوعة ، ويحس بوخيم العواقب ، فيقطر شعره مرارة وحسرة على أولئك الذين يبيعون أرض الوطن للغرباء الدخلاء ، يقول في قصيدة سنة ١٩٢٩ :

باعوا البلاد إلى أعدائهم طمعا

بالمال ، لكنما أوطانهم باعوا

قد يعذرون لو أن الجوع أرغمهم
والله ما عطشوا يوما ولا جـــاعوا

وبلغة العار عند الجوع تلفظها
نفس لها عن قبولِ العار رداع

لكنهـــم وعذاب الله يمحقهم
للبطن والفرج دون الخـــير نزاع

تلك البلاد إذا قلت اسمها وطن
لا يفهمون ودون الفهم أطماع

يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة
ولا تذكرت أن الخصم خـــداع

لقد جنيت على الأحفـــاد وا لهفى
وهم عبيد وخـــدام وأتبـــاع

وغرك الذهب اللمـــاع تحرزه
إن السراب كما تدريه لمـــاع

فكر بموتك فى أرض نشأت بها
واترك لقبرك أرضا طولها بـــاع

والعبرة التى جناها العرب من بيع أرضهم بفلسطين بالذهب

والنساء والأطماع والفرقة والأنانية عبرة مكتوبة بالمر على القلوب المفجوعة ، عبرة مريرة ، خلفت أسى وشقاء كثيرا ، ومئات من البائسين من الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة من اللاجئين، لا يجدون ما يلتحفون به تحت السماء سوى القرشتاء والقيظ صيفا . وقد ذكر الشاعر إبراهيم طوقان فى شعره ضروبا من التحذير وجهها إلى وطنه فقال لهم إن الذى ينعم بثراء المال الذى باع به أرض وطنه اليوم سوف يشقى غدا إذ ينبذ بالعراء وهو ذميم فقير ضعيف مهين . . . وسيجر إلهون والذلة والتشريد لأبناء وطنه ممن لم يجنوا جنايته يقول : -

هيهـات ذلك إن فى ... بيع القرى بيع الثراء
فيه الرحيـل عن الربو ... ع غدا إلى وادى الفناء
فاليوم أمـرح كاسيا ... وغدا سأنبذ بالعـراء

وكشف شعره عن سياسة العملاء ، الذين أضاعوا فلسطين، هذه السياسة التى نقاسى منها فى بلادنا العربية كثيرا ، فهؤلاء العملاء الذين يتشدقون بشعارات مختلفة ، كلها أباطيل وضلال أضاعوا من قبل فلسطين ، وندد بهم طوقان فى أبيات تفيض مرارة وسخرية ، وتكشف عن خدعهم يقول :

أيهـــا المخلصـــون للوطنيـــه

أنتم الحاملون عبء القضيـــه

أنتم العاملون من غـــير قول

بارك الله فى الزنـــود الفتيـــه

و « بيان » منكم يعـــادل جيشا

بمعـــدات زحفـــه الحربيه

و « اجتماع » منـــكم يرد علينا

غابر المجـــد من فتوح أميه

وخلاص البـــلاد صار على البا

ب وجاءت أعيـــاده الورديه

ما جحدنا أفضالكم غير أنا

لم تزل فى نفوسنا أمنيـــه

فى يدينا بقية من بـــلاد

فاستريحـــوا كى لا تطير البقيه

ويقول أيضا فى أولئك العملاء ، وقد سماهم « سماسرة البلاد » :

أما سماسرة البـــلاد فعصبـــة

عار على أهل البلاد بقاؤها

إبليس أعلن صاغرا إفلاسه
لما تحقق عنده إغراؤها
يتنعمون مكرمين كأنما
لنعيمهم عم البلاد شقاؤها
هم أهل نجدتها وإن أنكرتم
وهم وأنفك صاغر زعماؤها
وحماتها . وبهم يتم خرابها
وعلى يديهم بيعها وشراؤها

وعرض فى هذه الأبيات الأخيرة لمكانة فئة العملاء فى بلادهم بما نالوا من المناصب الهامة التى وضعتهم فيها ظروف البلاد البائسة ، وطالع النحس ، فصاروا زعماءها وقادتها فى وقت محنتها على الرغم من أهلها ، وصاروا يتنعمون بخيرها ، وإن عاد على البلاد الشقاء والخراب ، نتيجة إهمالهم وأنانيتهم وبيعهم لها فى سوق الاستعمار مزايدين بين الدول لمن يدفع الثمن الغالى ، ولا هم لهم غير نفع وقتى ، مال ، أو جاه ، أو سلطان ، وشهوة عارضة ، ولا يحسبون حساب الوطن أو أهله ، أو شرف البلاد وعزها . . .

ثم وقعت الواقعة ، واجتمعت جيوش العرب السبعة على رقعة فلسطين الصغيرة ، فهزمت وتراجعت أمام شراذم اليهود وعصاباتهم ، ولم يكن تراجعهم عن جبن ، أو قلة حماسة وفداء ، بل كانت هزيمتهم عن خيانات وخلافات . وكانت نكبة ، وكانت عارا ، وكانت سهاما من نار نفذت فى صدور العرب فى كل مكان ، فخلفت جراحا لا تلتئم إلا بالعودة ، عودة الغرباء ، عودة البلد الحبيب إلى أهله .

وصار شعر النكبة مقسم الموضوعات بين بكاء على ذلك العار ، وبكاء على الشقاء الذى جرته ، ثم آمال واسعة تبدو فى الأفق يتعللون بها ، وتفتح أمام نفوسهم طاقات من الرجاء ، ويرون فى القومية العربية ذلك الرجاء المقبل الذى سيحقق الآمال .

يقول الشاعر هارون هاشم رشيد فى قصيدة بعنوان «غريب» :

سار عن أرضـــه غريبا طريدا

وقضى دون أن يرى النصر عيدا

كان يرنو لهـــا فتدمع عينـــاه

وتهمى على الخـــدود صديـــدا

كان يهفـو إلى لقـاء ثـراه
فـيرى حلمه عـزيزا فريدا
وإذا رفـرفت أمـام رؤاه
صور الأمس راح يبكى الحدودا

. . .

يا فلسطين لن ننام عن الحـق
ولو حـولوا الوجـود حـديدا

ويقول من قصيدة أخرى بعنوان « لماذا » :

لـماذا أظـل بـلا موطـن
أحـوم كالطـائر المثخن
لـماذا وبيتى وراء الحـدود
وكرمى وذكرى شبابى الهـنى
أليس حراما لعمر الـكرامـة
أن يحـرمـونى من قريتى
وفيها طفولة عمرى الخصيب
وفيهـا منـابت حريـتى

* * *

وداری هنـــاك وحـــق السماء

أجـــل دار أهلى وأجداديه

وزيتونتى . . وبيـــوت الدجاج

وناعـــورتى . . وفم الساقيـــة

* * *

سلوهم بحق الذى يعبـــدون

بأى الشرائع هـــذا يـــكون

نشرد فى كل صقع بعيـــد

ونفـــى ليستمتع الآخـــرون

* * *

سنرجع إنا غـــدا راجعـــون

إلى وطن العز جنبا لجنب

ويقول الشاعر عادل الغضبان فى وصف تلك النكبة ورجاء النفوس بنصرة الحق على الباطل بأيدى العرب الأشاوس :

حمى لا يزال البغى يجتاح أرضه

وتعثو به ذؤبانـــه وكـــواسره

ويعشو إليـــه كل علج وآبق

ويطرد منـــه أهـــله وعشائره

بكى «المسجد الأقصى» وماجت بشجوها
محـــاريبه ملتـــاعة ومنـــابره
وناح بأنحاء « القيامة* » هيكل
حزين ولاحت بالحـــداد ستائره
ودقت نواقيس الهدى نغم الأسى
وبثتـــه فى سمع السماء منـــائره
على كل بيت للعـــلىّ مقدس
غدا الدين فيـــه لا تقام شعائره
على كل كرم ذل فى قبضة العدى
وأصبح مقصياً عن الكرم عاصره
على شجر الزيتون وشحه الأسى
وأينع مغبراً من الحـــزن ثامـــره
ولو أنصف الزيتون كانت ثماره
رصاصاً وأشواك القتـــاد غدائره
فيا وطنى صبراً على البغى إنـــه
يزول وإن الله لا بـــد قاهره
غداً تهادى راية العدل فى الورى
فينصر مـــوتور ويخـــذل واتره

وتضرب أسد العرب ضربة غالب

تهيج لها من كل غاب قساوره

وتزهى بنصر كالربيـــع ملألئ

تكلل هامات الرجـــال أزاهره

ويهنـــأ من ولى ولم يشهد الحمى

محـــررة أرباضـــه وجزائره

وللشاعرة عزيزة هارون أبيات (مجلة الآداب مايو ١٩٥٦) تخاطب فيها ضمائر الناس بعيدا عن ضجيج السياسة ، فتقول فى نشيد مؤثر قوى :

لا وحق الحب لن أخلف وعدا

وحنين رف ريحانا وودا

أنا للثأر وللطفل المفدى

فارس فى حومة الحب تردى

إنه للغمرة الحمراء يهدى

ولدى بين اليتامى وغدا يشتد زندا

قال يوما يا رفاق الصف إنى أتحدى

إن أمى صقلتنى ، وأعدتنى فرندا

أنا للثأر ولن أخلف عهدا
ألف بركان بقلبي ليس يهدا
إنما الظالم فى الدار استبدا
أنا لا أعرف يافا بلدتى بالروح تفدى
إنها فى قلب أمى عبقت طيبا وندا
وهيام فى مداه الطلق لن يعرف حدا
وهى فى مقلة أمى بحنان الحب تندى
واجبى بالروح يا أم يؤدى
عربى كأبى يقحم الساحات فردا

وهذه النماذج من شعر فلسطين تمثل أكثر ما يدور فى شعر النكبة من المعانى ، التى تمثل وصف بؤس اللاجئين وظلم الإنسان والاستعمار ، ثم الأمل فى العودة ، والإعداد لها بين صفوف العرب وصفوف شعب فلسطين فى كل بلد عربى .

كفاح الجزائر

انطلقت حركة التحرر فى الجزائر بعد نكبة فلسطين ، فتلفتت آمال العرب إلى ذلك البلد العربى الذى سلبه الاستعمار وفصله عن بقية الوطن العربى دهرا طويلا ، وتآمر على عروبته وحاول أن يصبغه الصبغة الغربية ، فكانت الهبة الرائعة تمثل الروح العربى الذى يكمن لينطلق عملاقا جبارا ، وشغل كفاح العرب فى الجزائر نفوس العرب ، وأثارت قرائح الشعراء والأدباء فجادت بشعر جزائرى مفعم بالفداء ، وصور البطولات التى يمثلها إخواننا بالجزائر إذ يكافحون فى الجبال والسهول قوى المستعمر الغاصب ، وهى قوى تفوق قوى الوطنيين أضعافا .

وتشبه معركة الجزائر معركة فلسطين ، فقد شردت كذلك آلافاً من العرب ، وحكمت عليهم بسكنى المعسكرات لاجئين ، بعيدا عن أرضهم وزرعهم ، كذلك يتمسك المستعمر الغاصب فى تصميم بالأرض التى غصبها ، ويقاتل من أجلها قتالا مريرًا وحشيًّا ، ويتآمر على مصير البلد العربى وأهله .

وصور الكتاب والشعراء فى سطور من نار قصص الكفاح

المرير ، وصار لدينا فى الأدب العربى الحديث ذخيرة غنية ، وملاحم فياضة بضروب البطولة ، والمشاعر الحية المضطرمة . ونقتطف نماذج مما جاد به الشعراء فى المجلات العربية عن معركة الجزائر . فيقول الشاعر كاظم جواد فى قصيدة بعنوان « رسالة إلى صديقتى . . . من سجين عربى فى الجزائر إلى رفيقته المناضلة » ، يصور فيها آمال محبين من مجاهدى الجزائر ، وقد تحطم السجن عن البطل ، فانطلق يلحق برفاقه وبينهم حبيبته وزميلته فى الكفاح ، لينعم معهم بالنصر الذى يراه قريبا أكيدا :

سينهار هذا الجدار الكبير
ويندك سور الشقاء المرير
ويحدو قوافلنا المقبلات
مع الشمس صوت الرجاء الأخير

ويقول الشاعر فارس قويدر :

يا نفحة التاريخ لن تنطفى
ويا حروفا بعد لم تكتبا
ويا شموخا لم يزل صامدا
يعلم الأجيال معنى الإبا

لن تهـــدأ الثـــورة فى أرضنا
تبـــارك الدم الـــذى خضبا
وفجـــر الأجيـــال حقدا على
أحفـــاد مـــيرابو الذى أذنبا
جـــزائرى لا نارهـــا أخمدت
كلا ولا شعبى انطفا أو نبـــا
وحـــق قتـــلانا لنـــا جولة
يذهل فيهـــا الظالمين النبـــا
لن تعدمى الأيدى التى تعتـــنى
بالزهـــرة الحمراء كى تخضبا

واستشهد فى المعركة كثيرون من أبناء العروبة ، وأسر كثيرون وعذبوا ، ولكن خلد حادث جميلة بوحريد المجاهدة العنيدة إصرار المجاهدين لتحقيق استقلال الجزائر ، وهز ضمائر العرب وأدمى قلوبهم فتاة منهم يكيل لها ذئاب المستعمرين ضروب العسف والتعذيب ، فانطلقت الأقلام العربية تكتب المقالات الطوال ، تنعى على الإنسانية الغاشمة ممثلة فى جنود فرنسا وجلاديها ، وتنبه ضمير العالم الغافى أو الذى طمسته

المصالح ، وغلب الحديث عن جميلة على صفحات الجرائد والمجلات ، بل شغلت به إذاعات الدول العربية وفنانوها ، وظهر « فيلم عربى » فى حياة المجاهدة البطلة . وشارك الشعراء الركب فصوروا ما يرمز إليه حادث جميلة من تصميم الشعب الجزائرى على الحرية مهما كان الثمن . وكثر الحديث فى هذا الموضوع ، فرأينا الشاعرة العراقية نازك الملائكة تخرج علينا بأبيات تقول فيها :

ونحن منحنا لوصف جراحك كل شفه
وجرّحنا الوصف ، خدّش أسماعنا المرهفه
وأنت حملت القيود الثقيلة
وحين تحرقت عطشى الشفاه إلى كأس ماء
حشدنا اللحون وقلنا سنسكتها بالغناء
ونشدو لها فى الليالى الطويلة
وقلنا لقد أرشفوها الدماء ، سقوها اللهيب
وقلنا لقد سمروها على خشبات الصليب
ورحنا نغنى لمجد البطولة
وقلنا سننقذها ، سوف نفعل ثم عزفنا
وراء مدى سوف ، بين الحروف النشاوى..
وصحنا . . . جميلة

وتتحرق الشاعرة فى هذه الأبيات مرارة من عذاب جميلة وزملائها ، فهى ترسف فى الأغلال وتدمى يداها ورجلاها من القيود ، ونحن بقية أبناء العروبة ننعى حظها ونسود الصحف فى النوح ، ووصف بطولتها وتحملها للآلام وننعى حظها قولا .. كلاما .. وهى تنزو دما وآلاما .. فوا خجلتا بجميلة ، لأنا لم نقدم لها سوى الشعر .. والكلمات ..

هم حملوها جرح السكاكين فى سوء نيه
ونحن نحملها فى ابتسام وحسن طويــه
جراح المعانى الغلاظ الجهولا
فيا لجراح تعمق فيهــا نيــوب فرنسا
وجرح القرابة أعمق من كل جرح وأقسى
... فواخجلتا بجميله

فهنا شعور عميق بوجوب النهوض والعمل لإنقاذ جميلة ، وإنقاذ زملائها ، دعوة للمشاركة الفعالة بالنفس والمال ، بكل ما نملك لإنقاذ إخواننا بالجزائر ، حتى تتحرر جميلة ، وحتى يبلغ إخواننا بالجزائر أهدافهم التى ثاروا من أجلها ، وليحققوا لبلدهم العربى عروبته ، التى أرادت فرنسا أن تطمسها وتخفيها إخفاء .. ولكن هيهات ...

معركة القناة

وكان من أعمق المعارك أثرا فى نضال القومية العربية وكفاحها فى سبيل الحياة معركة القناة وجهاد بورسعيد حين تآمرت قوى العدوان الثلاثى ممثلة فى فرنسا وإنجلترا وإسرائيل فى أكتوبر ١٩٥٦ فشنت هجومها الغادر على منطقة القناة وسيناء ، لتحطم مصر ، وتحطم بذلك القومية العربية فى عشها ، فلاينطلق لسان ، ولا يجرؤ إنسان على تحدى الاستعمار ، أو معاونة حركات التحرر العربى ، والمناداة بالقومية ، وقد رأت هذه القوى ذات المصالح الحيوية فى بلادنا العربية أن مصر مأوى الأحرار من العرب ، وأنها تتولى القيادة ، ولا تبخل بجهد أو مال ، أو مصلحة خاصة بل تضحى بهذا كله فى سبيل تحقيق أهداف القومية العربية ، وضم الشمل العربى ، وتحرير الوطن من الخليج إلى المحيط . أراد أولئك المعتدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الحاقدون الحانقون .

وجاهد الشعب العربى فى معركة القناة ، وفى بورسعيد جهادا رائعا خالدا ، فخرجت مصر قوية الأزر ، شديدة التصميم ، وحفظها الله للعروبة ، فخرجت القومية بنصر القناة رافعة الرأس خفاقة اللواء واثقة فى المستقبل ، وفى أن الجهاد

سبيل التحرر . لقد أظهرت معركة القناة أصالة جوهر القومية العربية، وكشفت للعالم الغطاء عن القوى الكامنة فى الوطن العربى عن روح الفداء والتضحية ، من أجل الإخاء ، ووحدة الكفاح ووحدة الهدف والتصميم لبلوغ النصر ، على الرغم من الخلافات المصطنعة التى يبثها دعاة الفرقة وغربان البين من الزعماء المزيفين .

لقد أظهرت معركة القناة الوحدة العربية فى أروع صورها، قطع البترول عن الغرب ، فكانت ضربة سديدة ، وتضحية عزيزة ، لتثبت الشعوب العربية أن المعركة معركة العرب جميعا وليست معركة شعب مصر وحده . وقد سجل الأدب فى أنصع صفحاته صورا رائعة للكفاح العربى فى بورسعيد ، سجلها شعراء العرب فى كل مكان .

فى مصر صدر كثير من شعر المعركة ، نذكر منه على سبيل المثال كتاب « شعر المعركة » وهو مجموعة من الشعر الذى قيل فى هذه المناسبة ، جمعته وطبعته وزارة الثقافة والإرشاد ويضم عددا من قصائد شعراء العرب فى مصر والشام والعراق ، من أمثال سليمان العيسى ونزار قبانى وعادل الغضبان وعلى الجندى ومحمد التهامى وخالد الجرنوسى ومحمود غنيم؛ ومنها ديوان « من وحى بورسعيد » للشاعر الضابط حسن فتح الباب ، وديوان من الشعر الشعبى لصلاح جاهين ، غير كثير من القصائد نشرت فى

المجلات والجرائد، وكانت صدى خالدا، وأثرا باقيا فى أدبنا الحديث.

ويشترك هذا الإنتاج الشعرى فى خصائص واحدة تجمع بين أبناء الشعب العربى فى حقيقة مشاعرهم تجاه الأحداث التى مرت بمصر ، ويمكن تلخيص هذه الخصائص فى أن الشعب العربى شعر بأن الضربة التى كانت موجهة إلى مصر فى بورسعيد لم يكن المقصود بها مصر وحدها ، بل المقصود بها حقيقة العالم العربى كله والقومية العربية ، تلك القومية النامية المتفتحة فى الشرق الأوسط ، والتى أضحت بالنسبة للاستعمار شبحا مخيفا ، وعملاقا هائلا يفزعه ، ويقطع أحلامه ، ويقلق مضاجعه ، ويهدد مصالحه ، وخاصة فى اقتصادياته المتصلة بالبترول العربى ، وطرق تجارته ، ومراكزه الحيوية للدفاع .

وصور شعراء العربية هذه الضربة الثلاثية ضد مصر ضربة موجهة لكل فرد عربى وكل قطر عربى ، لذلك نجد الثورة ضد المعتدين ، والرغبة فى الفداء ، وإلقاء كل الثقل فى المعركة ، ومشاركة المصريين وأبناء بورسعيد فى شرف القتال ، وتمثلت بورسعيد فى هذا الشعر رمزا للتصميم والتضحية والمصابرة والاستبسال فى سبيل رد القوى الغاشمة .

ويعبر الشاعر السودانى عن وحدة الكفاح ، وعما ذكرنا

من معان بقوله :

إذا ما طوتك غيوم الزمــان · طوتني دياجــيرها والظلم
وإن سقط الدمع من مقلتيك بكيت بقلبي دموعا بدم
وتأسى روافد بحــر الغــزال إذا ما بدمياط خطب ألم

وكذلك يقول الشاعر السوداني الآخر :

لما أتت أنبــاء حــربك فى الدفاع وفى الإغاره
هتف الجنوب وأرعــدت فى الجو أضواء الشراره
لبيــك يــا دار العــلا لبيــك يا مهــد الحضاره

كذلك عبر الشعر عن مكانة مصر بين الدول العربية ، تلك المكانة التى احتلتها باعتبارها الأخت الكبرى عن طريق الحب والتقدير ، والنضال عن أخواتها العربيات ، ومساعدتها فى نضالها التحررى ومعاونتها فى نهضتها الفكرية والحضارية . وهى مكانة تكمن فى أعماق الصدور ، لا تزعزعها أهواء السياسة ولا زيف المزيفين .

كذلك ظهر فى أدب المعركة دعوة إلى المضى قدما فى سبيل إتمام تحرير الوطن العربى بسرعة وعزم ، شد من أزره كشف الاستعمار عن نواياه ، وعمده إلى طرق الغدر المفضوح والقوة الغاشمة . وهى دعوة لأبناء العروبة لمواصلة الكفاح برغم كل ما يقف فى الطر يق من المشاق والأهوال . وهذا المعنى يتردد

كثيرا فى شعر الشباب ، ويمثله قول الشاعر السورى سليمان العيسى :

أبصرت دربى لا وقوف ولا التواء عن المسير
لى أن أحس شموخ رأسى ناسجا بيدى مصيرى
لى أن أشم شذا الحيا ة مللت أنفاس القبور
لى أن أبيت وليس فى أذنى صرخة مستجير
لى موطنى لا للدخيل ولى بأزهارى عبيرى

كذلك يظهر اتجاه آخر يختلف عن الاتجاهات السابقة ، ينظر فى هذا الصراع الغشوم ، والقتل والاغتصاب ، فيرمى بآمال بعيدة إلى عالم يرفرف عليه السلام بأجنحته ، عالم يحترم فيه الناس إنسانيتهم ، ويتعايشون فى تعاطف وتسامح ، ويرى هذا الاتجاه فى القومية العربية الأمل المنشود ، بما تنطوى عليه من دعوة للسلام والإخاء ، وعدم تشجيع دعاة الحرب بالدخول فى الأحلاف ، بل الوقوف موقف الحياد لزيادة فرص السلام .

وقد رأى الشعر فى الوحدة التى تمت بين مصر وسوريا تحت راية الجمهورية العربية المتحدة تحقيقا عمليًّا للحلم الكبير للقومية العربية فى سبيل وحدة الوطن ، لذلك ترنم الشعراء بيوم الوحدة ، واعتبروا هذا الحدث الجليل بعد معركة بورسعيد

إرهاصا بإشراق شمس العروبة من جديد يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل :

وإذا راية تمس يد الشمـــــس وتمضى لسدة النيرات
نفضت عن جبينها حسرة الذل وداست على جبين الطغاة

قلت من أنت فانبرت تحصد الصمت
وتــروى العظــائم الخــالدات
أنا بنت الوليد بنت صلاح الدين
بنت المــلاحم الداميــات
البطــولات نــورت بين كفى
وشــع الضيــاء من عتبــاتى

. . .

آذن الله وانتهت غبشة الليــل
وثــارت على عميــق السبــات
وعلت وحــدة العــروبة كالطود
فبــادت عصائب الســافيــات
رايــة العــرب رفرفى فى سماء البعث
وامضى خفــاقة فى الحياة

الأدب والدعوة لبناء الكيان المعنوى للقومية العربية

خاض الأدب الحديث المعركة لبناء الكيان المعنوى الاجتماعى ، والثقافى ، والأخلاقى إلى جانب معركته ضد الاستعمار وفى سبيل تحقيق التحرر السياسى ، فالقومية العربية حركة بناء ، وتجديد لتحقيق الرفاهية للشعب العربى ، ولتحقيق ذاته وكيانه ، بعد أن ظل كيانه ضائعا فى غيره من الدول والشعوب دهورا طويلة . وخشية أن يضيع أيضا فى زحمة التيارات الجديدة فى حضارة القرن العشرين .

وقد وقف الأدب يناضل فى سبيل تدعيم قيمنا العربية فى نفوس المواطنين ، وهى قيم منبثقة من تاريخنا وتقاليدنا ، روحنا ووعينا وواقعنا ، لا مستوردة أو مهجنة مولدة .

وأول ما خاض الأدب من معارك فى هذا المضمار معركة اللغة العربية ، وقد حاول دعاة التفرقة والإقليمية ، ودعاة التفرنج والثقافة الغربية أن يحطوا من قدر اللغة العربية ، وأن يفتتوا من كيانها الكبير ، وأن يبعثوا على أنقاضها اللهجات الإقليمية لكى تتم الفرقة الثقافية والوجدانية بين أبناء الوطن العربى ، وليتم

الانفصال بين الشعوب التى وحدت بينها تلك اللغة قرونا .
ولكن اللغة صمدت مع ذلك أمام هجمات شديدة شنها بعض الأدباء والنقاد فى مطلع هذا القرن ، فى المراحل الأولى من الانتفاضة العربية ، وكانت الدعوة فى كل مكان إلى إحياء اللغة الفصحى قوية كما كان أجدادنا يستعملونها فى عصور الازدهار ، وإحياء التراث الفكرى العربى ، وإعادة مجدنا الحضارى حتى يصبح لنا زاد فكرى نستطيع أن نعتمد عليه ونبنى أسس نهضتنا المقبلة ، حتى لا نلجأ إلى تأسيسها على أسس مستعارة مجتلبة ، غريبة عن واقعنا ووجداننا .

وتصدى المخلصون من أدباء العرب للحرب التى شنت على اللغة ، فعارضوا إحلال اللهجات الإقليمية مكان الفصحى فى الأدب ، بل هاجموا مجرد التحرر من قيود الفصحى وقواعدها ، لتظل اللغة كما هى ، كما كتب بها أجدادنا ودونت بها معالمنا الفكرية الخالدة ، وكما نزل بها القرآن سليمة صافية قوية ، تربط بين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا .

وقد نظم حافظ إبراهيم فى الدفاع عن العربية قصيدة طويلة يبدؤها بقوله :

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى
وناديت قــومى فاحتسبت حياتى

يقول فيها :

أيطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادى بوأدى فى ربيـــع حياتى
ولو تزجـــرون الطير يوما علمتم
بمـــا تحتـــه من عثرة وشتات

ويقول إن كل أناس يعتزون بلغاتهم ، ويعتبرونها عنوان مجدهم ورمز عزتهم ، وإن الدعوى بهجر لغتنا الفصحى والإقلال من شأنها إنما هى دعوى شعوبية من شأنها تحقيرنا نحن والنيل من كياننا .

أرى لرجال الغرب عزاً ومنعـــة
وكم عز أقـــوام بعـــز لغات
أيهجرنى قـــومى عفا الله عنهمو
إلى لغـــة لم تتصـــل بـــرواة
سرت لوثة الأعجام فيها كما سرى
لعاب الأفاعى فى مسيل فرات

فهذه اللهجات العامية التى يدعو الداعون إلى كتابة الأدب بها ، وتدوين نتاجنا الثقافى إنما هى لغة قاصرة ، خليط ، سرت فيها ألفاظ غير عربية من كل جنس ، فإذا سهلت على لسان العوام فلن تصلح لتدوين محاصيل الفكر .

كذلك يشرح مصطفى صادق الرافعى ما يترتب على دعوى إضعاف اللغة العربية الفصحى وعدم الأخذ بها فى آدابنا وعلومنا من إضعاف لكياننا ، وإهدار لمقوماتنا ، فإنما هذه اللغة أمٌ لنا :

أمٌ يكيد لها من نسلها العقب
ولا نقيصة إلا ما جنى النسب
كانت لهم سببا فى كل مكرمة
وهم لنكبتها من دهرها سبب

. . .

أنترك الغرب يلهونا بزخرفة
ومشرق الشمس يبكينا وينتحب
وعندنا نهر عذب لشاربه
فكيف نتركه فى البحر ينسرب
وهل نضيع ما أبقى الزمان لنا
وننفض الكف ، لا مجد ولا حسب
أنا إذا سبة فى الشرق فاضحة
والشرق منا وإن كنا به خرب

وينعى الشاعر سابا رزيق فى قصيدة (ديوانه المطبوع سنة ١٩٥٥) — ينعى على أولئك الذين تركوا لغة الأجداد إلى

اللغات الأجنبية يتقنونها ويولونها جل اهتمامهم ، ويهملون اللغة التى حفظت تراثنا :

أرى لغة الأجداد فى عقر دارها
تسام الأذى من كل أحمق أهوج
يطلقها أبناؤها وبناتها
لخطب ولاء الأعجمى المدبج
أنقضى عليها وهى آخر درة
بأجيادنا فى عقدنا المترجرج
جنينا على أم اللغات جناية
ستترك روض العز غير مسبج
وتجعلنا مثل اليهود خرائقا
مضيعة الأوطان تبكى وترتجى

فاللغة هى الرابطة التى تجمع الأمة العربية ، وتوثق بينها الصلات ، وتؤلف القلوب فى الوطن العربى الكبير ، ففى أى بلد عربى يستطيع المواطن العربى أن يخاطب أخاه العربى دون أن يحس بغربة أو فرقة . فاللغة العربية لسان القومية الحى ، ورسولها إلى العرب فى كل مكان ، تحمل الأمانة ، وتنشر مقوماتها ودعوتها كما حملتها أول مرة فى عهد النبوة ، كلمات منزلات من لدن اللطيف الخبير :

لهذا ينبغى أن تظل العربية لسانا القوى ومفخرتنا الباقية على الزمن ، وينبغى أن نؤمن كما آمن آباؤنا وأجدادنا بأنها أم اللغات ، وهى اللغة الوحيدة التى تنزل بها كتاب من السماء ، نصًّا لا معنى ، لذلك جاء الكتاب المنزل أسمى ما يمكن أن تصل إليه اللغة من ناحية البيان والتعبير الأدبى الفصيح البليغ . وقد حاول أحد علماء المسلمين أخيرا أن يثبت أن اللغة العربية أقدم اللغات الحية ، بل أراد أن يبرهن على أنها أم اللغات كلها فى صورتها الأولى[١] .

وما زالت هذه اللغة إلى الآن حية متطورة تعى وتتسع لكل شىء جديد ، تتكيف مع الحياة لتساير حاجاتها ، وتستوعب كل ما يصل إليه العقل البشرى . كذلك تمتاز هذه اللغة بين سائر اللغات بأنها احتفظت لنا بالقرآن فى تلك الصورة الرائعة من البلاغة التى هى مرجع كل بليغ ، ومورد كل أديب ، والقرآن مقروء مدروس يتلى ليل نهار ، ويحفظه المسلمون ويسمعون آياته فى كل مناسبة ، ويتعدد هذا السماع فى اليوم والأسبوع والشهور والسنين ، ولا ينقطع . وهذا الترداد خلود للغة وتجديد على مر السنين .

إذا فلغتنا ليست كما يرميها به بعض الرامين من أن بها

(١) راجع هذا المقال فى عدد فبراير ١٩٥٩ من مجلة «Islamie Review»

قصورا ، وتخلفا عن الوفاء بمستلزمات العصر والحضارة الحديثة ، فهذه كلها دعاوى فارغة عارية ، مرجعها الجهل باللغة والتكاسل عن التعرف إليها والأخذ بأسبابها .

وقد دارت مناقشات طويلة فى الكتب وعلى صفحات المجلات والجرائد حول هذا الموضوع ، وتجدد القول فى الموضوع أكثر من مرة خلال النصف الأول لهذا القرن . وحاول بعض العلماء والأدباء أن يخرجوا بالدعوة القديمة وهى تطوير اللغة الفصحى وتطعيمها بالعامية ، أو إنهاض العامية وتقويتها على حساب العربية ، للنهوض بالأعمال الفنية وخاصة فى القصص والمسرح والسينما والإذاعة . . . وما شابهها . ولكن هذه الدعوات سرعان ما خفتت لأن العلماء العارفين تصدوا لها ، ولأن الوعى العربى النامى لم يستجب لها ، وأحس بالأخطار المحدقة بالقومية إذاساير تلك الاتجاهات فقاوم الدعوة للعامية فى الأدب مقاومة شديدة عنيدة .

وناقش الأدباء عناصر مقوماتنا الأخرى ، فدافعوا عن تقاليدنا وأخلاقنا ضد تقاليد الغرب التى أخذت تتسلل إلى المجتمعات العربية مع فجر النهضة الحديثة ، وكانت هذه التقاليد والعادات الغربية تصدم المجتمع العربى بما تحمله من بذور التحلل والتحرر والأخلاق التى لا يقبلها الطبع العربى .

وبدت العادات والتقاليد الغربية لعيون بعض شبابنا العربى فى صور براقة خلابة فتنتهم فمالوا إليها ودعوا لها وإلى اتباعها فى مجتمعاتنا دون تحفظ . ولكن الدعاة من المصلحين وقفوا لهذا التيار بالمرصاد ونبهوا الناس إلى ضرورة التمسك بعقائدنا وتقاليدنا لنحتفظ بشخصيتنا متماسكة لا تذوب وتتلاشى فى تيار الحضارة الغربية . ونبه أولئك الدعاة المصلحون كذلك إلى خطورة هذه التقاليد الغربية على مقوماتنا العربية . وكان الأدب لسان هذه الدعوة الصارخ . من ذلك ما قاله السيد رضا الشبيبى ينعى على هذه المدنيات الغربية الوافدة ، ويسمى الزمن التى وفدت إلينا فيه زمن الضلالات :

تظنون هـــذا العصر عصر هداية .
وأجدر لو ندعوه عصر ضلالات

ويقول جورجى زيدان مبينا السبب فى اقتران اسم التمدن فى مصر بالفساد الاجتماعى :

« واتفق أن التمدن جاء هذه البلاد (مصر) وهى فى مهاوى الانحطاط ، على أثر استبداد المماليك ومن جرى مجراهم ، ولكنه لم يتناول فى أول عهده إلا التعليم والتربية مع المحافظة على الحشمة الشرقية . وأما التهتك أو خرق الحجب فلم يظهر إلا فى أواخر القرن الماضى لما كثر تقليدنا للإفرنج حتى فيما ينافى فطرتنا » .

وندد الأدب بنوعين من المفاسد الاجتماعية الوافدة مع مدنية الغرب ، أحدهما المحرمات الدينية والأخلاقية كالقمار والمسكرات بأنواعها والمخدرات والتهتك الجنسي والاختلاط ، وثانيها بعض العادات المستهجنة كالرقص والسباحة المختلطة والتطرف فى بعض الأزياء . . . وما إلى ذلك .

وكثرت كتابات الأدباء فى هذين الموضوعين ، وللمنفلوطى فى النظرات كثير من الآراء فى دعوة الناس إلى الفضيلة والبعد عن مهاوى الرذيلة . كذلك فعل الشعراء فى كل بلد عربى . وقد أكثر الشاعر الكبير أحمد شوقى من ذكر الأخلاق والتذكير بها فى شعره حتى عد ذلك من سماته البارزة ، وكان ذلك لأن شوقى عاش فى هذه الفترة التى بدأت فيها الحضارة الغربية تغزو المجتمع العربى .

كذلك رأى الشعراء أن يدعموا للأمة العربية كيانها الاجتماعى ببعث المجد الثقافى والتذكير بأخلاق العرب وفضائلهم . يقول الشاعر المهجرى أبو الفضل الوليد :

سلام على العرب الخالدين ... سلام العلا وسلام الكرم
وإنى لأقرأ تاريخهم ... وما سطروه بحبر ودم
بنى أم هل من نهوض لنا ... وهل من هيام بتلك الشيم
لقد فقد العرب أخلاقهم ... فسادت زمانا جموع العجم

فالشاعر يدعو إلى نهضة العرب وتمسكهم بأخلاق أسلافهم وشيمهم الكريمة التى كانت سببا فى بعث حضارتهم العظيمة وسيادتها جميع البلاد التى غمرتها . وكانت أخلاقهم تلك سببا فى تقدمهم على سائر الأمم ، فجدير بهم أن يتمسكوا بها ليحافظوا على كيانهم ولا يغلبوا على أمرهم . كذلك قال الشاعر رشيد أيوب :

فنحن بنو الأعراب كنا ولم نزل
بما خصنا المولى نفوق الأجانبـــا
ألسنا الألى سادوا العباد ودوخوا
البلاد وأبدوا فى الحروب العجائبا
كذاك بنينا للعـــلوم معاهـــدا
وشدنا لأهل الأرض فيها مكاتبا
فما روت الأيـــام من عهد آدم
إلى اليوم من شعب يفوق الأعاربا
فيا وطنى لا زلت أول بقعـــة
من الأرض أبدت للبرايا عجائبا
طويت من الآثار ما لو نشرته
لضاقت به الدنيا حجا ومواهبا

كذلك لم يكفوا عن ترديد وجوب التمسك بتلك الأخلاق العربية ، وقد اتضح هذا الجانب الأخلاقى عند شوقى كما ذكرنا وهو القائل :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وأراد الأدب العربى أن يقوم المجتمع العربى الحديث على عنصريه معا المرأة والرجل ، ولم تكن الدعوة إلى رفع شأن الرجل العربى وحده وتحريره من أوهام الماضى وحبائله وتزويده بسلاح العلم والفهم الحديث للحياة وحقوقه باعتباره إنسانا يحيا ويشارك فى رفاهية إخوانه من المواطنين وبنى البشر أجمعين ، لم تقتصر الدعوة على الرجل العربى وحده ، بل إن بعض المصلحين وقفوا جهودهم للدعوة لنهضة المرأة العربية وتحريرها من الرق والظلم والخوف والتقاليد والجهل والحجاب الصفيق الذى ظل زمانا يحجزها عن مسايرة التطور ، ومشاركة الرجل فى بناء مجتمع صالح . وكان قاسم أمين على رأس أولئك المصلحين ، فقد وقف حياته للدفاع عن قضية المرأة فى وقت كان التزمت فيه على أشده ، وقد كتب كتابه « المرأة الجديدة » وجعله دستورا لتحرير المرأة من الحجاب والتقاليد والعادات البالية . . وطالب بتعليمها ، وتنظيم مسائل الزواج والطلاق ومنحها الحقوق

الاجتماعية مستندا فى هذا كله إلى النصوص القرآنية والنبوية ، محاولا تفسيرها بما يلائم روح العصر .

وشارك الشعراء فى هذا الاتجاه ، فنظم حافظ إبراهيم قصيدة يقول فيها :

من لى بتربيـــة النساء فإنها   فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرســـة إذا أعـــددتها   أعددت شعبا طيب الأعراق

وإن كانت دعوة حافظ دعوة متحفظ متمسك بالتقاليد إلى حد ما ، ويظهر هذا فى قوله :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا
بين الرجال يجلن فى الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازع
يحـــذرن رقبتـــه ولا من واق
كلا ولا أدعـــوكم أن تسرفوا
فى الحجب والتضييق والإرهاق
فتوسطوا فى الحالتين وأنصفوا
فالشر فى التضييق والإطـــلاق

وظلت الدعوة لنبذ الحجاب فى مصر وغيرها ، ففى العراق نجد الشاعر العراقى معروف الرصافى يدعو إلى إطلاق سراح المرأة بعد ما قضت من زمن طويل وعمر مديد فى العبودية والظلام ، فأخرجت لذلك أبناء عبيد أذلاء ، وقد آن لها أن تتحرر لتنتج لنا أعزة يتطلعون إلى مستقبل كريم :

ألم ترهم أمسوا عبيداً لأنهم
على الذل شبوا فى حجور إماء

وكذلك يقول الزهاوى :

مزقى يا ابنة العراق الحجابا　　واسفرى فالحياة تبغى انقلابا
مزقيه وأحرقيه بلا ريث　　فقد كان حارسا كذابا

وقال إيليا أبو ماضى يدعو المرأة السورية إلى الخروج عن عزلتها ، والكفاح مع الرجل العربى جنبا إلى جنب لبناء مستقبل عزيز سعيد :

قد مشى الغرب على هام السها　　ومشينا فى الحضيض الأسفل
سجل العار علينا معشر　　سجلوا المرأة بين الهمل
فهى إما سلعة حاملة　　سلعا أو آلة فى معمل
أرسلوها تذرع الأرض خطا　　وتبارى كل بيت مثل